المجهول

رواية

أسيرة بدر

obeikan.com

دار بيوند للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

الكتاب: المجهول

المؤلف: أسية بدر

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: محمد علي

إخراج داخلي: صبرينة غلمي

تصحيح لغوي: نسرين محمد

مها المقداد

المقاس:20*14

رقم الإيداع: 2017\29128

الترقيم الدولي:978-977-6645-02-8

رئيس مجلس الإدارة

محمد عزالدين

المدير العام

صبرينة غلمي

All Rights Reserved
Beyond for Publishing and Distribution
+2 01095600007
beyond.dbh@gmail.com
www.facebook.com/beyond.PDH
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

obeikan.com

الملخص

كل منا يبدو في ظاهره شخص عادي لكل من حوله، والأهم أننا أحياناً؛ نبدو لأنفسنا هكذا، وهذا ما ظنه محمد القاسم في نفسه، ذلك الموظف العادي في سكك حديد مصر، إلى أن تحركت حياته التي تبدو كسطح عاكس هادي لا شيء هناك سوى وجهه وأسرته في الخلفية؛ حتى حانت اللحظة التي تعرف فيها على ذاته بكل تناقضاتها وصراعها بين الخير والشر، أحداث غريبة، بدت خيالية لكن هي بمأساتها بدت الشيء الوحيد الحقيقي، مفارقات مثيرة حطمت هذا السطح العاكس مظهره ما جعله في حالة من الدهشة والذهول، فهل من عودة للوراء..

~~~~~~~

أي تشابه بين شخصيات وإحداث الرواية مع شخصيات وإحداث من واقع الحياة فهو من قبيل الصدفة، فالرواية ومن وحي الخيال وليس أكثر

آسية بدر.

obeikan.com
~~~~~~~

المجهول ....

ركبت القطار.. ليس تعبيرًا فلسفيًا هذه المرة؛ فلم يكن قطار الحياة ولكن كان قطار سكك حديد مصر.. المتوجه لإحدى محافظات مصر النائية...

أعرفكم بنفسي أولاً.. أنا محمد القاسم عبد الجليل؛ موظف بإحدى الإدارات الحكومية التابعة لوزارة النقل العام تحديدًا "سكك حديد مصر".

المنقول حديثًا لتلك المحافظة، وذلك تنفيذًا لقرار السيد معالي وكيل أول وزارة النقل؛ لأنفذ نقلي وأحصل على ترقيتي، حيث قدمت شكوى لسيادته بتعمد تخطي السادة المسئولون ترقيتي؛ بل وترقية من هم دوني، رغم استحقاقي لتلك الترقية؛ ومن ثمّ حصلت على ترقيتي ونقلي، مودعًا أمي وأبنائي وزوجتي التي ظلت تبكي متذمرة باعتراض على رحيلي...

فترة قصيرة والأولاد تنتهي دراستهم وتأتون إليَّ في الإجازة، لا تدعيني أسافر وأنا قلق عليكم أعتمد عليك ولطالما فعلت؛ وكنتِ دوماً على قدر المسؤولية...

هذه ليلى زوجتي وحب عمري... صحيح أصاب علاقتنا بعض الفتور، لكن ذلك يحدث بين كل زوجين في مرحلة ما ثم يمر....

هكذا أُعزي نفسي بنفسي، فأنا رجل متفتح ومتفائل وعاقل...

أنا لا أتخيل أن تبتعد عني كل تلك المدة... ما الذي استفدته بعدما حصلت على ترقيتك الغبية هذه!

ترقيتي ليست غبية هي حقي الذي لن أتنازل عنه أبداً، وسأذهب إلى آخر الدنيا للحصول عليه، وكنت على استعداد بتصعيد الموقف لأبعد حد ممكن وهم يعرفونني جيدًا، لذلك حصلت على حقوقي كاملة وبهدوء.

ماذا سأفعل من دونك ....

لا تقلقي... سأعمل على ترتيب كل أمورك قبل أن أرحل.. قلت ذلك كاذبًا أعلم أنها ستتحمل مسؤولية كل أفراد الأسرة في غيابي كما تفعل في وجودي، فلم يسبق أن ذهبت لمدرسة أحد أبنائنا إثر استدعاء ولي أمر، أو ذهبت معهم لجلسات طبيب الأسنان، أو نقل أوراقهم لمدارس أخرى، كما أنني أشهد أنه لم يحدث أبداً أن استدعيت أي عامل تصليحات؛ لإصلاح أي عطل أو عمل صيانة لأي جهاز منزلي؛ نظرت إلي بلوم فنظرت إليها بفراغ صبر؛ قائلاً: ماذا الآن؟!

أنت لا تفهم!

حسناً افترضي أنني قليل العقل والذكاء؛ واشرحي لي ما هو الذي لا أفهمه!

وفجأة اقتربت مني؛ بدأت تحضنني وتقبلني بشوق ورغبة، كما لو كنت عائد من السفر؛ وليست مسافراً.. فاستجبت لها على الفور ملبيًا؛ فهي أبداً لم تكن البادئة بهذا الأمر بل أحيانًا تفعل ذلك على مضضٍ لإرضائي فقط، ولا تعلم كم أن ذلك يجرح كرامة الرجل، كانت كمن يئست رغم جمالها وأنوثتها التي تتزايد مع الوقت، لكن بدت وكأنها لم تعد تعطي لهذا الأمر أهمية، أو أنه لم يعد يرضيها أو يشعرها بشيء، فصبرت ورُحت أعزي حالي بالذكريات... لن أنسى يوم قابلتها في الجامعة أول مرة، كانت أصغر مني بعامين، وقعت في حبها من أول نظرة، وكيف لا! قد كنت مبهور بشخصيتها الجذابة كانت كثيرة الضحك والابتسام، اجتماعية ودودة، والأهم جميلة للغاية في كل إنش منها، ومازالت تحتفظ بجمالها رغم إنجاب ثلاثة أطفال، لكن لا أعرف متى تحولت إلى امرأة نكده كثيرة البكاء والغضب، لكنني ما أزال أحبها رغم ذلك، أحبها بكل عيب فيها فهي طيبة ولها قلب من ذهب وفوق كل ذلك تعشقني ...

وهكذا أمضيت آخر أيامي في "بنت المعز" ما بين تجهيزات سفري وما بين ليلتي.... زوجتي الحبيبة التي طال شوقي إليها، وأنا أرها تذبل بين عملها الدؤوب، وبين البيت ورعاية الأبناء ورعايتي، ورعاية وأمي المسنة التي سكنت معنا بعدما توفي أبي؛ فليس من الممكن بأي حال من الأحوال أن اتركها، وقد أفنت شبابها وعمرها في تربيتي أنا وإخوتي.. وحيث أنني كنت الكبير فكنت أولى ببرها وبركتها، أهنأ متمتعًا بدعائها لي، يكفيني ما انقطع عني من دعاء أبي....

آه يا أبي - رحمه الله -.. فقد كان صديقي الصدوق هو من جعلني أعشق القراءة والكتابة، واجتهد في تحصيل العلم، ها هو قد فارق عالمنا؛ وهو يراني أعافر في وظيفة لا تتناسب مع ميولي في إحدى المؤسسات الحكومية، كان يدفعني دوماً للأمام، ويظن أنني سأصبح يوماً ما أديباً كبيراً.

رحل وقد ورثت عنه عدة مبادئ ومكتبة عملاقة، لأكبر وأشهر الكُتاب في الوطن العربي، أمضيت آخر ليلة لي بين أحضان امرأة أخرى.

لا تفهموا خطأ.. أتحدث عن زوجتي ولكنها كانت مختلفة للغاية، بدت جميلة ومغرية كما لم أعهدها من قبل... دافئة حنونة يتملكها الجنون والرغبة... ها هي الزهرة الذابلة تتفتح مُغدقةً أجمل العطور الأنثوية المثيرة المدغدغة للأعصاب...

كان يجب أن أرحل منذ وقت بعيد.

أنت قاسي القلب.

ابتسمتُ في وجهها المتوهج.. حقاً يا ليلى، لو علمت أن الأمور ستستقيم على هذا النحو بمفارقتي لكِ لبعض الوقت، وأننا سنصل بعلاقتنا لهذا الحد من البهجة والحيوية لفعلت ذلك منذ زمن بعيد..

ماذا تقصد؟ هل أنت غير سعيد معي!.

بالطبع سعيد، وتابعت لكي أنقذ نفسي مما أكاد أن أقع فيه.. وهذا يذكرني بشهر عسلنا، أتذكرين ذلك؛ بل أنا أسعد رجل بالعالم، لكن هناك مذاق مختلف بيننا الآن تحديدًا، مسحت دمعة هاربة من عينيها وقالت بخجل... نعم أذكر أحياناً ننسى الاهتمام بأشياء هامة وحيوية.. لكن ذلك يحدث بالتدريج فلا نكاد نلحظ فقدان تلك الأشياء، ونعتاد غيابها دون دراية أو قصد، أندهش لكل تلك الأمور التي فقدتها على مر السنن... وأهمها الشغف الذي غاب عن علاقتنا.

كانت تلك الدمعة افتتاحية للسيل الجارف؛ فقلت أهدهدها... لما البكاء حبيبتي كل شيء سيكون بخير، مما تخشين، لن اتزوج عليك، فقط تم نقلي... نظرت إليَّ شذراً، فهي تثور ما أن أبدأ مزاح في هذا الأمر... فزاد نحيبها.

ليلى! اهدئي.

أنت تتمتع بإغاظتي.. تعلم جيدًا ما يستفز أعصابي وتفعله.

أنا أمزح!

وأنا أكره تلك المزحة السيئة، وأنت تعلم هذا جيداً.

لم يكن لدي رد.... حقًا أعلم كم يضايقها هذا الأمر، ومع ذلك أفعله من وقت لآخر، وكأن استفزازها يرضيني، ربما هو انتقام خفي، بسبب احباطي في علاقتنا، واعتبارها السبب الوحيد له، رغم أنني أعترف وفي قرارة نفسي أنها ليست المذنبة الوحيدة في ذلك.

لا أعلم ربما، لكن حقًا لا أريد مضايقتها... خصوصاً وأنا ذاهب لقطر آخر، فقلت لأرضيها

لا بأس حبيبتي، أنا آسف، أعدك الا أفعل.

أراك تستهين كثيراً بهذا الأمر، وبغيابك عني وعن بيتنا..

عزيزتي هناك بيت مجهز بانتظارك هذا ليس وداعًا، لا تفسدي تلك اللحظة علينا... دعيني أذهب لأسلم على أمي، فلا أريد التأخر على القطار...

متعجل للغاية؟!!!!

قبلتها قبلة طويلة حتى تكف عن الكلام، وهذه نصيحة جيدة لكل رجلٍ.

جلست أتحدث وأمي قبل أن أرحل... لن تحتاجين لشيءٍ في غيابي، فقد أوصيت ليلي بأن تهتم بكِ.

لا تقلق بشأني، فقط اهتم بنفسك.

هي مستاءة للغاية.

أرجو أن تتفهمي وضعها، وتحتضنينها مثلما فعلتي دوماً.

لا تشغل بالك هي فقط تغار عليك، عندما تشعر المرأة بدنو غياب زوجها عنها لأي الأسباب؛ حتى تبدأ في التصرف على هذا النحو..

تغار!!

أجل تغار وتبدأ بالتصرف هكذا بتودد وحنان؛ لتترك لك ما يشغلك كثيرًا؛ فتتطلع للمزيد منها، ولا تنظر لسواها.

أنا أتطلع لغير ليلى هذا أمر مستحيل.

لا تتعجب هكذا، إنها الطريقة التي تفكر بها معظم النساء.

لن أحاول حتى الفهم، قبلت يديها... ومنحتني دعائها الطيب.. ووصاياها وبركتها، ثم نظرت لأبنائي النائمين في فراشهم بأمان "علي وفاطمة وخديجة"، كم سأفتقدهم من الآن، وجوههم البريئة النقية، كادت العبرة تخنقني فلم يسبق أن ابتعدت عنهم؛ فرحلت وسط دموع و نشيج ليلى وتأثري البالغ، ركبت ذلك القطار متجهًا إلى المجهول...

أيكون الوضع مملًا أم أن هناك مغامرة تنتظرني حيث وجهتي، حياتي حاليًا وبتعبير دارمي نوعًا ما كبحيرة راكدة، فهي تسير الهوينة في مسار محدد، دون أي توقعات مفاجئة، فأنا شخص عادي، موظف عام مثلي مثل الآلاف من المواطنين، أكافح ؛ لأوفر لأسرتي مستوى معيشي مقبول، كل شيء يسير وفقًا لما خطت له، أيحدث أن يأتي يوم و يصيب حجر ما تلك البحيرة، ويبدأ سطحها بالتذبذب محدثاً تغييرًا ما، لا أدري، ربما...

بدأ القطار يتحرك برتابة صوته المعهود، اصطكاك الحديد ببعضه يضج في الرؤوس، القطار مزدحم ولا توجد أماكن شاغرة؛ فاليوم هو السبت وعادةً يكون مزدحمًا؛ لعودة الجميع من الإجازة، نظرت حولي أحدد شركائي في هذه الرحلة في المقاعد القريبة مني، أمامي كانت هناك امرأة وأطفالها الثلاثة.

كان أحدهم يقف على المقعد بقدميه، يتطلع إليَّ بنظراته الفضولية من وقت لآخر، مخرجاً لسانه ببلاهة، وقد وجد ضالته المنشودة في فتحة في مسند المقعد فأخذ يُخرج أحشائه، وأمه لم تنهاه ولا يبدو أن تصرفاته تزعجها، ودون توجيه أو مراجعة تركته يزعج الجميع بتصرفاته المقيتة، أردت أن أزجره، لا بل أزجر أمه كي تؤدبه، لكن لعلمي إلى أين سينتهي هذا الحوار صمت، ففوق أنها ستغضب من تبجحي وتدخلي في تربية الصغير؛ فسيقف الجميع معها بتأييد صارخ، ففي النهاية هذا ليس من شأني، وهناك جملة يؤمن بها الجميع " الأطفال أحباب الله" ليس الكل يا سادة، فبعض أطفال

هذا الزمن قتلة ومجرمون، أقصد هذا الكلام حرفيًا، لكن الكل يعلم ذلك وينكره، الجميع ينجب، والقليل مَنْ يُربي ويُخرِّج للمجتمع أبناءً صالحين.

حقًا الأمر خطير ومستفز، أهذا الطفل هو أملنا المستقبلي، في الواقع بدا لي أن أختيه الأكبر منه سنًا هادئتان ليس بسبب التربية، لكنه القمع الذي يُمارس في حق الإناث بمجتمعاتنا الداخلية، تحديدًا في الريف، وبما أنه الذكر الأوحد؛ فتلك كارثة أخرى، كيف أحب طفلي وأؤذيه بعدم التوجيه والتربية وتركه على هواه، للأسف مؤخرًا لم أدخل مكانًا إلا ووجدت ذلك النموذج السيء، تبدو ظاهرةً متفشيةً ورغم خطورتها لا أحد ينتبه لها، حقًا الأوضاع شاذة ومدمرة للحاضر والمستقبل، فلأشغل نفسي لبعض الوقت في القراءة، فمتابعة الناس أمر محبط و مثير للعصبية والتوتر، ثم من أنا حتى أحكم على أي كائن، فلولا شدة ليلى مع أبنائنا؛ ما كانوا بهذا الانضباط، حسنًا هذا واجب كل أم فهي متواجدة معهم أكثر مني، أخرجت رفيق رحلتي الكتاب، وقد وقع اختياري على رواية سمعت عنها كثيرًا وهي لكاتب جديد، اشتريتها خصيصًا لهذه الرحلة، وشعرت بإثارة كبيرة جدًا لكن عبثًا حاولت القراءة، فكلما هممت بذلك يحدث ما يشتت تفكيري، حتى وجدت أنها فكرة سيئة جدًا، ماذا ظننت نفسي محمد عبد الوهاب..

أفق لنفسك، أنت فقط محمد القاسم المنقول حديثًا لمنصب نائب المدير العام.

أعلم وجهتي جيدًا.. ولكنني أتعامل مع الأمر برمته بنوعٍ من الغموض، كما لو أنني لا أعلم إلى أين سيحملني هذا القطار، فهذا يثير خيالي للغاية، ويشوقني كما لو كنت ذاهبًا لمغامرة ما....

وتذكرت أغنية عبد الحليم حافظ.. وأخذت أهمهم بها في سري .... جئت لا أعلم من أين!

لكنني اختلف مع حليم... فأنا أعلم من أين جئت.. وإلى أين سأذهب، لكني لا أعلم ماذا ينتظرني.. أتعلمون هذا الإحساس الذي ينتابكم عند الإقدام على أمر ما، بأن هناك شيء ما لا تعرفون ماهيته، إحساس مسبق لشيء ما، حسنًا أنا أشعر بذلك...

لكن حقاً يا أنا.. لقد أقمتِ الدنيا وأقعدتها لأجل تلك الترقية اللعينة، وأكملت دراساتك العليا حاصلاً على الدرجة العلمية التي تؤهلكِ لتلك الترقية بجدارة وارتياح.. ولقد حصلتِ على ما أردتِ، فلا تتذمر الآن!

لا شيء يسلي حتى هذه اللحظة... القراءة حالة وجدانية كما اليوجا، تحتاج لكامل وعي الإنسان وتركيزه؛ ليحصل الفائدة المرجوة، والكتاب كائن حي يجب أن تحترمه ليحترمك، ويغدق عليك بخلاصته ومضمونه... هكذا كان يقول والدي الحاصل على ثانوية عامة بنظامها القديم، لكنه يفوق حديثي التخرج من كليات القمة ثقافةً وعمقًا وذكاءً.

وأخذت أُصغي لزوجين يثرثران، كانا يجلسان على المقعد المُقابل لمقعدي... أجل عودة أخرى لرفاق رحلتي الصاخبين، فالكتاب رفيقي يكره الضوضاء، فلم استطع التعامل معه؛ فتركته في أمان حقيبتي، كانت المرأة حانقة للغاية مما ذكرني بزوجتي القديمة... اقصد ليلى كم كانت دائمة الشكوى.. تأن من كل شيء وتغضب لأتفه الأسباب في الآونة الأخيرة.. لقد تغيرت كثيرًا!

كم هي رائعة حكمة الكبار... نظرية الوالدة مقبولة جدًا، ليلى تخشى أن تفقدني... كم نحن البشر غرباء ما أن نشعر بخسارة شخص هام في حياتنا؛ حتى يسترعي انتباهنا وتقديرنا، فنحن شعب يُقدر الموتى والراحلين هكذا قال أدباؤنا، وأنا أصدقهم،.. كم عني لي هذا التغيير فقد جاء ليروي عطش سنين من جدب المشاعر، وبرودة الأحاسيس.

ليلي زوجة رائعة يتمناها أي رجل، جميلة ومثقفة، طيبة القلب، يكفي احتضانها لأمي ومعاملتها كوالدتها، الأمر الذي أقدره للغاية، هي فقط فقدت الاهتمام ببعض الأمور التي لا يفقد الرجال اهتمامهم بها أبدًا...

أصبحت روتينية فاترة.. ربما جاءت تلك الترقية وهذا النقل لصالحنا... حقاً أتمنى ذلك

رغم أنني لم أشكو يومًا، ورحت أُذكر نفسي بمتاعبها، واحتمال مالا أحتمل أنا من مسؤوليات..

ربما كنت السبب في ذلك... بل أدرك جيدًا أنني جزء من بعض تلك الأمور، التي أدت إلى ما آل إليه حالنا... باعتمادي على التنحي والتنصل من مسئولياتي تجاه أسرتي وبيتي، محملاً إياها كل العبء، وراحت هي تحمل ما ناءت به كتفي من أحمال، وتأن و تخضع تحت وطأة كل ذلك وأنا أتجاهل، ثم في النهاية أدعي التفضل بأنني صابر عليها، وامتص ببرودتي غضبها، إذا ما يومًا ثارت وغضبت... يا للرجل الهمام الذي أنا عليه، حقًا كان هذا اتفاقنا معاً، وقد وافقت هي أن تتحمل المسؤولية كاملة لأتفرغ أنا للدراسات العليا، كما لو كنت انتظر هذا الأمر فما كان مني إلا أن تنحيت تمامًا، ملقيًا كل الحمل فوق كتفيها، دون أدنى مساعدة مني، لقد أردت هذه الترقية بشدة؛ فهي ستنقلني في عالم الوظيفة نقلةً كبرى، وسأصل بها لمناصب عليا، لن أظل هذا الموظف البسيط مدى الحياة، الطموح جميل وهذا أمر لا شك فيه، كما أن هذا سيعود بالنفع على جميع أفراد أسرتي، بما فيهم زوجتي ليلى.

نظرت إلى المرأة وزوجها أتابع آخر مستجدات الموقف الذي بدا متأزمًا.. بالفعل يبدو أن الشقاق وقع بينهما واحتدم فصمتا، وبينما عقد الرجل حاجبيه.. شغلت المرأة نفسها بالمناظر التي تطل عليها نافذة القطار، وربما كانت تلهي نفسها حتى لا تصرخ أو تبكي...

كم أن المرء بحاجة لفترة تأمل داخل ذاته، لتقييم كل شيء في حياته وترتيب أولوياته...

معي ثلاثة أشهر حتى ينتهي أبنائي من دراستهم، ثلاثة أشهر خالية من كل من اعتدت إدمانه في حياتي... أمي زوجتي وأبنائي... كل من عرفتهم ذات يوم.. لن يكون هناك سوى العمل، والخلوة بالنفس دون وجود أي إنسان، فرصة لن تتكرر كثيراً...

ثلاثة أشهر... كفي عن ذلك لا تكوني ممل يا أنا، ما الذي سيحدث في ثلاثة أشهر... ستنقضي سريعًا، وتبقى أنتِ على حالك.

سأغمض عيني قليلاً ربما نمت..

لكنني اتفق مع نفسي على أن ثلاثة أشهر فترة طويلة بما يكفي لإحداث تغيير جذري في حياة المرء، بل عدة أيام كفيلة بذلك....

استيقظت من النوم... ظننت أنني نمت كثيرًا، لكن عندما نظرت إلى الساعة اكتشفت أنني لم أنم سوى نصف ساعة..

ما هذا الملل ... نظرت حولي.. هل يشعر هؤلاء الناس بالملل مثلي

لا يبدو ذلك... فهم الآن منشغلون بالطعام والشراب، إنه وقت الغداء وما زلنا بعيدين عن وجهتنا... سأشغل وقتي أيضًا مُضيعًا البعض منه في الطعام، وبما أنني مسافر زاده الخيال وهذا غير مشبع في الواقع، تناولت السندوتشات والشاي الذي أعدته ليلى، كآخر وجبة طعام من يديها حتى أعود والتقيها مجددًا.

نظرت لأتفقد حال الزوجين، ما شاهدته اضحكني فعلاً؛ فقد مال الرجل بجسده تجاه زوجته ووضع فمه قرب أذنيها كأنه يخبرها بسر خطير، ومن وقت لآخر تنظر إليه وتهز رأسها علامة التعجب تارة والاقتناع تارة أخرى.

حسنًا يا رفيق... هيا أكذب وصب في أذنيها معسول الكلام، وقارع غضبها بالحجج الفارغة؛ ستصدقك كما تفعل نساء هذا البلد، فهن يملن دومًا لتصديق أكاذيبنا في سبيل إبقاء البيوت آمنة من الخراب، هيا أفعل مثلما يفعل الرجل الصالح.. وهي ستفعل مثلما تفعل المرأة العاقلة، ليس عيبًا أن تخبر زوجتك أنها أجمل امرأة في العالم مع بعض الأكاذيب الأخرى؛ للتنصل من موقف ما... بل الرجل الحصيف اللطيف يفعل ذلك دوماً، الذكي وحده من يدرك أن راحته في الدنيا من راحة ورضاء نساء بيته أمه وزوجته وبناته...

فإذا أرضى أمه كانت له سعادة الدنيا والآخرة، وإذا أرضى زوجته حاز على سعادة الدنيا وبهجتها.. وإذا أرضى بناته أصبح عنده أكثر من أم.. من يرغب في أكثر من ذلك.....

هذا ما قصده نزار قباني عندما قال كل الرجال كاذبون... لكن هو كذب حلال.. كما دلال وفتنة النساء مع أزواجهن وسلب ألبابهن سحراً حلالاً.....

نظرت المرأة تجاهي وقد استرعى انتباهها فضولي السافر؛ فصرفت نظري خجلاً تجاه النافذة...

حسنًا بدا المشهد يدعو للنظر.. فلأهرب من عينيها حتى لا توبخني بنظره محتقرة، أطلت النظر متأملاً كيف يلتهم القطار آلاف الكيلومترات من الأراضي، ملقيها خلفنا بلا اكتراث.. فجاءتني خاطرة أو هي ومضة أنارت في عقلي وحفزت الإبداع لدي، ومن ثمّ أحضرت دفتري وقلمي الذي لا يفارقني...

والذي أحمله ليذكرني بإحدى أمنياتي وطموحاتي الكثيرة، التي لم تتحقق وهي أن أصبح كاتبًا، كيف تخليت عن تلك الأمنية...

كما يفعل الجميع، أخذت أسوف واتراخى مدعيًا أن الوقت أمامي ممدودًا تماماً كهذه القضبان، وأنختُ ناقة أحلامي وتركت لها الحبل حتى أفلتت وجمحت... وباتت أحلامي كلها بما فيها الكتابة مؤجلة، وأصبح كل طموح لدي في الحياة هو كيف أعيل أسرتي وأوفر لهم كل وسائل الراحة والسعادة..

ها هو تسويف أخر؛ لست نادمًا مازال أمامي الوقت لأحقق بعض تلك الأمنيات ربما في الغد...

وأخذت أكتب... القطار بدا كما الزمن الذي يمضي أمامي، ملتهماً تلك اللحظات التي يسرقها من عمري فيلقيها إلى برزخ الأوقات والأعمار الضائعة المهدرة، نعم لقد كانت لدي أوقات كثيرة مهدرة هي تلك التي ألقاها القطار خلفه.

ما هذا الذي أقوله.. أتحدث ككهل... بينما أنا لم اتخط الثالثة والأربعين... فلم أشعر بأنني كهل؛ فمنذ قليل كنت أسوف وهذا من شيم الشباب....

لن أتحدث عن أبي وما كان له من عشرة طيبة بأمي.. سأتحدث عن جدي... كم كان عجوزًا أشيب الرأس، ولكنه كان فتيًا قويًا، يحب الحياة ويدعي الصبا... وظل يعمل بالنجارة حتى أخر عمره؛ كم كان بسيط المطالب راضيًا بالقليل.. فعاش سعيداً حتى وافته المنية.

كان يأكل ما تكشطه جدتي من وجه الحليب مع قطعة الحلاوة الطحينية.. ويشمخ بأنفه مربتًا على بطنه الكبير كأنه للتو التهم خروفًا مشويًا، ثم يتغزل

في جدتي، مناديًا إياها بأسماء التحبب والدلال، وكانت هي تبتسم بخجل فرحةً بذلك، وتغمزه لينتبه لوجودي.. وتحتضني كما لو أنها احتضنت العالم بأكمله من كثرة السعادة التي تجتاحها، فقد كانا كهلين، أتعجب كيف استطاعا الاحتفاظ بجذوتهما مشتعلة حتى هذه السن الكبيرة، بحسن العشرة أم الرضا بالقليل، وعيش اللحظة دون التطلع للقادم وعمل مخططات واسعة المدى له، رحم الله جدتي كانت أقصى أمنياتها أن تشتري مروحة سقف.

أما الآن لا تخلو البيوت من المكيفات، ووسائل الراحة والترفيه ومع ذلك لا وجود للرضا أو حتى بعضًا من تلك السعادة التي تحولت لأسطورة العصر.

لا تدعو أبدًا أن الأمر له علاقة باحتياج أو غنى وسعة في العيش، هذه مسألة جشع، أتحدث عني وعن أمثالي نجد ونجتهد لنعمر منازلنا ومع ذلك لسنا سعداء، ننشغل عن السعادة بتلك الأشياء التي نشقى لتحصيلها، نشتري ما يسعدنا وننسى أن نسعد به، فما أن نحصل على شيء حتى ننشغل بالآخر، لا تخبروني أن السعادة يلزمها المال... هذا خطأ شائع عند فقراء الحب والعطاء.... كان جدي سعيد وأبي كذلك؛ ولم يكونا أغنياء؛ إلا فيما يختص بالمشاعر والأحاسيس، فماذا حدث!

اعتقد أنه حب المادة الذي طغى على الحب الحقيقي فاختنق...

أتراه قد مات أم هو بحاجة للإنعاش... أحب أن أعتقد أنه الثانية، بدليل ليلي وما أحدثه معها بعض التحفيز...

ماذا عني.. قد كنت طفلا سعيداً، لم يكن لدي اشتراك في النادي.. كنت ألعب في الشارع... وأقصى ما تخافه أمي هو أن تتسخ ملابسي؛ أما الآن أخشى على أبنائي أن ينزلوا للشارع حتى لا تتسخ قلوبهم.. فلزم أن يكون

هناك بديلاً، فكان النادي، ثم فضائح وانتهاكات من المدربين في حق الأطفال فأصبحت أخشى عليهم الذهاب للنادي.

وأخشى وأخشي وبين هذه وتلك تضيع طفولتهم.. نعم لقد حققت لأبنائي مستوً لائقًا ورفاهيَّة لم أحصل أنا عليها، رغم ذلك أرى أنني في طفولتي كنت أسعد حالاً منهم.. كم أشفق عليهم، إن التفكير في مستقبلهم محبط جدًا.

كم أشتاق لهذا الطفل الصغير غير المبالي الذي كنت عليه... لقد كنت سعيدًا ولدي مئات الذكريات العالقة معي لتثبت ذلك؛ فكيف أجعل أبنائي سعداء... في عالم يئد الطفولة مبكراً.

نمت مرة ثانية وهذه المرة عندما استيقظت كان القطار قد وصل إلى وجهته..

حملت حقائبي وترجلت من القطار، ترى هل جاء مندوب الوزارة كي يستقبلني ويقوم بتوصيلي للمنزل الجديد؟! ... هذا ما تم إخباري به.

ترى ماذا سيكون وضع البيت، كان من المفترض أن آتي لأراه من قبل، إن كان ينقصه شيء، ولكن قد أُخبرتُ بأن هناك سكن لائق ومفروش، وأن الوزارة تغطي نفقاته، ولم يكن هناك وقت لدي، كما أنني لم أشحن معي أي أثاث منزلي كوني تركت أسرتي خلفي، فقط شحنت بعض الأمتعة الخاصة بي والتي علمت بوصولها للسكن بأمان.

كنت متخوفًا من وضع ذاك السكن ومتحمسًا للغاية؛ فأنا لن أقبل بالمكوث في مكان متهدم، وغير مؤهل، أو النوم على أثاث قذر، بحثت في وجوه البشر عن الموظف، وفيما أنا أفكر كان الصداع يفتك برأسي، فلم أعد أعقل أو أفقه شيئًا، رغم توقف القطار إلا أنني مازلت أسمع صوت ضجيجه في أذني.

حسناً سأتصل بالموظف؛ فمعي رقم هاتفه، ولم يسبق أن رأيته من قبل... كل شيء غامض وغير مألوف...

السلام عليكم، السيد محسن عبد التواب، لقد وصلت للمحطة أنا محمد القاسم.

وعليكم السلام أنا أبحث عن سعادتك في الحشود أرفع يديك كي أميزك.

حسناً ها أنا، ارتدي قميصًا أزرقَ و بنطال كحلي...

حسنًا لقد رأيتك.. حمدًا لله على سلامتك سيادة النائب

وقام السيد محسن بحمل الحقائب عني... وكان شابًا نحيلًا، لكن قوي فقد حمل حقائبي بسهولة ويسر رغم ثقلها، كان أصلع الرأس بشكل ملفت بحاجبيه الكثيفين بدا مضحكًا، لم تعجبني كلمة سيادة النائب فقلت... اسمي محمد القاسم!

حسنًا سيدي!

أتمنى أن الرحلة قد كانت مريحة...

حسنًا الأسفار هامة ومفيدة للتأمل وإعادة الحسابات، خاصة إذا كنت بمفردك... لكنها بأي حال من الأحوال، لم تتصف يومًا بالمريحة.

اقتادني للسيارة... بطبيعة الحال أراد أن يجلسني في الخلف لكني رفضت ذلك، بعد فترة صمت هي بطول السفر أرغب في التحدث مع أي شخص؛ فسألت: هل البيت بعيد؟!..

أبداً سعادتك... إنه قريب كما أن المؤسسة قريبة، وإلى جوار بضعة مرافق هامة، وكذلك جميع المصالح الحكومية والمدارس لن تجد ما يزعجك أبدًا.

عظيم جداً، أخذت انظر من النافذة

المكان رائع وغير مزدحم.. كما أن الريف المصري ليس كما يظن البعض... فقد طالته المدنية والعمران.. المباني حديثة كما أن المكان نظيف جدًا وهوائه عليل.

وظللت أشاهد الأراضي الزراعية التي مررنا عليها بابتهاج، بينما كان السيد محسن يثرثر

ونسيت قلقلي تجاه البيت، وسط بهجتي بكل ما رأيت من جمال الريف المصري....

حتى تفاجأت بالسيارة تقف أمام منزل... لا ليس منزلًا بدا كفيلا صغيرة تقف وحدها وسط أرضٍ شاسعة... تلفت حولي ربما لم يكن هو المكان المقصود.

وكان هناك عدة مباني تنتشر على الجانبين هنا وهناك... ربما البيت قريب..

تفضل سيادتك!

أهذا هو المنزل؟!

نعم هو- وقد بدا مهتزًا وهو يجيب.

تفضل سأدخلك وأحضر الحقائب.

أدخلني وأعطاني المفتاح... ثم أخرج منديلا من جببه ومسح حبات العرق على جبينه وصلعته اللامعة... بدا متوتراً، لا أعلم لما، سأكتشف ذلك فيما بعد... جالت عيناي في المكان الذي بدا كل شيء فيه جديد... أعلم جيدًا قدر

تلك الترقية وما آل إليه مستواي بعدها.. لكن هذا المنزل ليس ما توقعت.. استحق الراحة بعد عناء ومشاق، جابهتها في سبيل الحصول على تلك المكانة ومميزاتها لكن هذا المنزل!

أخبرني يا محسن بأمر ما..

لكَ أن تأمرني سعادتك..

المنزل يبدو وكأنه تم تجديده حديثاً؟!

فعلًا تم تجديده بالكامل، وسيكون هناك سور، سيبني قريبًا؛ كي يحدد الأرض المملوكة للوزارة، حتى لا تحدث نفس المشاكل التي حدثت من قبل، وتكون هناك خصوصية تامة.

أي مشاكل تلك التي حدثت؟!

تلعثم محسن وأخذ يزدرد ريقه بصوت مسموع؛ ثم قال: لا تشغل بالك كل شيء انتهى الآن... استرح من عناء السفر وتفقد البيت؛ لتعرف كل ما فيه، هناك طعام في البراد أعدته زوجتي للترحيب بك، كما أنني أحضرت بعض الأساسيات، وغداً إن شاء الله سآتي لأخذك للعمل...

لقد رحل قبل أن أتمكن من شكره وسؤاله عن أي شيء قائلاً: لو احتجت أي شيء اتصل وسآتيك فوراً.

ترى ما الذي يتهرب منه، هل هناك فساد إداري، هل ذلك المنزل هو رشوة مقنعة، الوضع مقلق وغامض.. حسنًا سنرى..

هناك أمر ما حتمًا... نقلت من مصر لأنفذ عقوبة في شكل ترقية، ولم آبه أبدًا أين سأرحل للحصول على تلك الترقية، ليس هو ما جال بخاطري.

فهذا هذا الذي أراه أمامي من ترف.. ليس ما دار في خلدي؛ ما هذا الذي تفعل بنفسك يا ابن القاسم ألا تستطيع الابتهاج بما ترى... أنت مرتاب جداً.

هناك هاتف أيضاً؛ وهو يعمل ما أجمله من منزل... سأستحم أولاً، ثم بعدها استكشفه جزءًا جزءًا.

أنهيت وضع ملابسي التي قامت ليلى بكيها، ووجدت مفاجأة منها وهي ثلاث قمصان جديدة، وطقم أزرار من النوع الفاخر...

تحدثت معها لأشكرها، وأعلمها بوصولي كما أوصتني!

ألو حبيبتي.. كيف حالك! -جاءني نشيجها منذ أن سمعت صوتي،

كفاك بكاءً ليلى، إنه أول يوم لي في هذه البلدة هيا تمني لي الخير وابتهجي، ثم قلت كاذبًا.. بكائك فأل سيء، لا أؤمن بتلك الأمور لكنها تؤمن بها وتخافها كثيرًا، وأنا استغل ذلك من آن لآخر جاءني صوتها أهدأ قليلاً... افتقدك ليس بيدي... لم تغب فعلًا عني، من قبل كنت دائمًا تعود لي، أما الآن وقد أصبحت في بلد وأنا في أخر أخشى... هذا غير محتمل

كلامها غير مترابط وغير مفهوم.

فلم أفهم منها أي شيء، مما تخشى...

أخذت أهدئها قليلاً متوددًا ومدللاً،

لكنها ابتهجت حقًا بعد أن تحدثت معها، عن المنزل وروعته، ووعدتها بإرسال صور لكل ركن فيه... حدثت والدتي كذلك، ثم أغلقت الهاتف ونمت، من شدة التعب والإرهاق... استيقظت وقد جَن الليل... وكان هناك من يدق جرس الباب.. أفي هذا الوقت ترى مَن يكون؟!!!...

كانت هناك امرأة غريبة الملبس تبدو كأحد السكان القدامى للمنطقة، بملابسها التي تتسع من عند الصدر لتنتهي بطبقات (كرانيش) مثنية فوق بعضها، ظللت اتطلع إليها بدهشة حتى تململت في وقفتها، ربما قد أخطأت المنزل...

أدخلني يا أستاذ!

معتذراً منها.. وقد أدخلتها فقد كانت تحمل فوق رأسها ما بدا لي أنه صينية طعام، فوضعتها على السفرة؛ قائلة: السيدة بثينة ترسل لك هذا الطعام مرحبة بك.

عفوًا.. مَن؟!...

جيرانك يا أستاذ..

حسنًا اشكريها بالنيابة عني... نظرت لي نظرة غريبة، ودست في يدي ورقة ورحلت...

نظرت إلى الورقة المطوية بفعل قبضة المرأة عليها، ووجدت مكتوب عليها بالقلم الأحمر... بثينة ورقم الهاتف أسفل الاسم؛ فقلت: ما هذا؟!

مزقت الورقة أنا أرفض هذا الأمر شكلًا وموضوعًا، ورحت استكشف الطعام؛.. فقد كان فاخراً جدًا وقد دل على اهتمام تلك البثينة بكافة ما تشتهيه الأنفس.

شعرت بجوع شديد، وقد أغراني الطعام شكلاً ورائحة.. حتمًا لن أرفض ذلك أبداً... أكلت حتى امتلأت.

obeikan.com

ولم آبه بشيء، وإن كان قد جاء بالخطأ، فلم أكن متحمسًا لتسخين طعام زوجة محسن أفندي، انتصف الليل وأصبح الوضع موحشًا نوعًا ما...

خرجت للشرفة استطلع المكان... فازددت وحشةً؛ فلا شيء سوى حشرات الليل تئز، وصرصور الغيط يُعرعر(صوت صرصور الليل)، ثم فجأة ظهر شيء أبيض في الظلام قافزًا بين الزراعات، فهنالك على مقربة من البيت أفدنة ممتدة مد البصر، بدت في النهار بديعة ومبهجة خضراء، لكن في الليل مع هذا الشيء القافز بدت مروعة وموحشة جدًا، واختفى هذا الشيء فجأة كما ظهر فجأة، ارتعدت أوصالي وشعرت ببرودة تحتاجني رغم تعرقي بشدة... فأسرعت بالدخول، مغلقًا الباب بإحكام.

ما كان ذلك... مطمئنًا نفسي، ربما كان أحد الحيوانات الليلية لا أكثر، وقد استبد بي الملل... قد ندمت على تمزيق تلك الورقة.. فماذا يحدث إن تحدثت مع المرأة وشكرتها على الطعام، الذي أعدته...

لا تعجبوا من شأني، إنه الليل يا سادة... دائماً ما يكون أشد وطأة علينا خاصةً، إذا خلا من الأحباب... لأملأ فراغي بأمر مفيد، كنت أعول على الوحدة لأتأمل، وأعيد ترتيب حساباتي، وها أنا أمل من أول ليلة، اه يا ليلتي أين أنت... لم اعتد الوحدة؛ لأني لم أكن يوماً وحيداً ولم يسبق أن ابتعدت عن البيت، سأقرأ أو أسجل خواطري عن تلك الرحلة بالقطار، أو لأتفقد المنزل أولاً لدي الكثير لأفعله، كل شيء جديد من أول الأثاث إلى الشراشف والبرادي، هناك فخامة وأبهة تحيط بكل شيء، الأمر محير ولا استسيغه، غرف النوم في الأعلى، غرفة كبيرة مجهزة بكل ما يحتاجه الزوجان، وبحمام حديث منفصل، وغرفة نوم أخرى أصغر لكنها لا تقل روعة عن الغرفة الكبيرة، ولها حمام مشترك مع غرفة للأطفال، بينما المجالس بالدور الأرضي والمطبخ أيضًا في الأسفل، مجهزاً بكل ما تحتاجه الزوجة العصرية، ليلى ستبتهج بهذا الشأن؛ فهي ماهرة بالطبخ، وقد كانت متخوفة مثلي وأكثر، فهي

مهوسة بالنظافة.. لابد لهذا المنزل من ثروة تكلفة لتجديده، صورت كل ركن كما وعدت ليلى، وفي الصباح سأرسل لها تلك اللقطات بكبسة زر كحلم... ما أجمل ذلك.. ولكن.. أجل أنها لكن تلك التي تقلق بالي.... عندما استلم عملي سأدقق في كل شيء، كل شيك أو اعتماد مالي تحت بند إصلاح وتطوير سكك حديد مصر، أجل هذا ما سأفعل، الحذر خير من الندم، أنا لست الشخص الغبي لأسمح بتوريطي في أي أعمال فساد ونهب....

بينما أنا سارح أفكر... فجأة سمعت جرس الهاتف يمزق وحدتي بإلحاح مزعج، أجفلني حتى كاد قلبي يتوقف عن العمل... مؤكد هذا

محسن أفندي يتفقد أحوالي، لكن الصوت الأنثوي المثير قطعاً لم يكن صوت محسن، قالت بدلال مثيرٍ: أعطيتك رقمي.. هل أضعته؟!

صمت قليلًا، مؤكد هي... قلت بارتباك، السيدة بثينة... أليس كذلك، كيف حصلتي على رقم الهاتف؟..

بثينة فقط، أنت لست غبي كما تظهر... أعلم أنك ربما أضعت الورقة، وللاحتياط حصلت على رقم تليفون المنزل كي اتصل بك... فما رأيك؟!

تبدين بارعة جداً، ولسان حالي يقول مصرة جدًا.... أشكرك فالطعام كان رائعًا..

لم أتحدث لتشكرني على الطعام... بل هناك أمرا آخر.

نعم!... اقصد ما هو؟..

هذا لن يجدي نفعًا، يجب أن أراك..

متى وأين؟!..

دع هذا الأمر لي...

وقفت واجمًا لبعض الوقت أنظر للهاتف، وكأنني أنتظر أن تخرج منه، أحدثت السماعة صوتًا وأنا أضعها مكانها بعنف لشدة ارتباكي.. ماذا حدث حتى أوافق على مقابلة هذه المرأة.. كما لو أنني متلهف للقائها.. بل كنت متلهفًا بالفعل، ما هذا الذي حدث للتو، ما هو الأمر الذي ترغب في الحديث عنه، لم تمض أربع وعشرون ساعة على تواجدي بالمكان وها أنا أخفق.....

ماذا دهاني لماذا أفكر بسوء نية ليس هناك من خطب...

المرأة تريد أن تتحدث معي في أمر ما هي قالت ذلك.. فما الضرر!

ذوقيًا لم أكن لأرفض ذلك بعد لفتتها الكريمة.

بفعل الإرهاق الناتج عن السفر والتفكير عدت للنوم، على كل حال عندي عمل في الصباح الباكر. فأنا متحمس ولم أقبل أن أبدأ بالإجازة، التي عرضت علي للراحة من السفر، لن استلم عملي الجديد بالتراخي والراحة، كما أنني على يقين بتلاعبات الإدارة، وأريد الوقوف بنفسي على كل مخالفة ترتكبها تلك الإدارة، مكبدةً البلد وأبناءها من البسطاء أرواحهم وأموالهم، أتحدث هنا عن الذين لا وسيلة لهم للتنقل عبر المحافظات سوى قطارات الموت المتهالكة..

استيقظت باكراً كان يجب أن استعد؛ لأن محسن سيمر ليوصلني إلى العمل لاستلام منصبي الجديد، وهو سيقوم بذلك حتى يتعافى السائق، فكما سمعت أنه متوعك.

وقفت أحضر الإفطار... ورغم وجود أصناف وألوان من الطعام الخفيف السهل، لكن راق لي أن أعد بعض البيض المقلي؛ وهو الشيء الوحيد الذي أعرف كيفية إعداده...

وكانت هناك فاتورة بكل شيء اشتراه محسن أفندي على طاولة المطبخ الرخام، يظهر طرفها من تحت المفرش الأنيق، لم ألاحظها، هذا جيد، كنت متحيرًا ومحرجًا فكيف أسأله عن ثمن ما اشتراه، قد وفر علي الإحراج، أخذتني أفكاري إلى بثينة، بدأت أعمل ربما أردت بذلك أن ألهي نفسي عن التفكير بها...

لكن كل ما حاز تفكيري وأنا اسمع صوت الزبدة، وهي تذوب مستجيبة لحرارة المقلاة على النار... وكذلك قلبي في حالة غامضة من الذوبان والحيرة، مستجيبًا لحرارة الرغبة والفضول، وكأنني عدت فتًا مراهقًا، صبيًا يهفو قلبه لشيء ما ينتظره ويتشوق له.. ماذا؟... وما علمي

إحساس بالقشعريرة أصابني والخوف كذلك...ز

رحت أفكر هل بثينة جميلة كصوتها... صوتها كأنه منوم مغناطيسي له رنة جذابة تأسر،

ليس صعبًا أن أدمن صوتًا كهذا، وأفقت من شرودي على صوت مزمور السيارة...

فقدت الاهتمام بطعام الإفطار من الأساس، نظرت لثيابي الأنيقة وهندامي، وأنا في طريقي إلى الباب حملت حقيبتي.. فتحت الباب مُرحبًا.. أهلاً محسن أفندي.. أنت على الوقت تماماً، أنا مستعد..

صباح الخير سيد محمد..

صباح الخير... هذه المرة جلست في الخلف.

وطوال الطريق للعمل لم أفكر سوى بها..... ماذا تريد يا ترى!

لما هذا الإلحاح على مقابلتي، وأنا رجل غريب عنها، من أين علمت بموعد وصولي، حسنًا إنها بلدة صغيرة، وحتمًا الجميع يعلم بأمر الموظف الجديد الذي نقل من القاهرة حديثًا؛ ليستلم المنصب الذي أصبح شاغرًا منذ فترة قصيرة.. خبر وصولي حتمًا تنقل في كل مكان، بدءًا من عند البقال الذي ابتاع منه محسن أفندي كل الأغراض، التي يحتاجها كل منزل خالي من امرأة، ربما البعض سيعتقد أنني أعزب، تروقني الفكرة... ما من رجل لا تأسره تلك الفكرة، العودة لحياة العزوبية والحرية، ولو بشكل مؤقت...

تذكرت الفاتورة، فناولت محسن مظروفًا به حساب الأغراض، مع نفحة إضافية سخية فحتمًا سأحتاجه كثيرًا وهذا دومًا يُجدي، أخذ يُهمهم مغتبطًا؛ فشكرته على الطعام الذي صنعته زوجته والذي لم أتناوله، لأني التهمت ما أرسلت بثينة من أطايب الطعام، وهكذا يفعل الكرماء من أهل الريف؛ يرسلون الطعام كتحية، الأمر ليس بغريب لكن رقم هاتفها هذا هو ما يُريب..

وللاحتياط تحصل على رقم المنزل أيضًا.. هذا حصار فلماذا؟

ثم متى وأين نتقابل؟!!... قالت ستتصرف هي...

انتظر يا ابن القاسم وسترى...

ها قد وصلنا سيدي!

وفي المصلحة التي بدت بحالة ممتازة بالنسبة للمصالح الحكومية في الحضر، ويبدو أن مخصصات المحافظات والاعتمادات المالية لإصلاح المؤسسات الحكومية سخية للغاية.

سيدي.. هذا حق نحن في منفى هنا..

من ينفذ النقل متخليًا عن بيته وأسرته وأصدقائه، يجب أن يحصل على امتيازات وأهمها مناخ مناسب للعمل.

يبدو أن هذا المُغفل يُصدق ما تم تحفيظه له جيدًا، بل ويخلص له في كل حرف؛ إن ما شاهدته حتى الآن هو جنة الله في الأرض، من أول المناخ المعتدل، والمنازل والكثافة السكانية المنخفضة والمشاهد الطبيعية البديعة والسكن..

لكن هناك ذلك الملل، الذي يسبق تأقلمك على أي وضع حياتي جديد، غير الذي اعتدت عليه لأعوام، وترك بيتك وأسرتك وجيرانك، وكل ما ارتبطت معهم بصلة ما، ها أنا أردد كلام الأحمق

حسنًا ربما تلك الرفاهية هي ما تقابل ذلك...

تعرفت على الرؤوس الكبيرة للمؤسسة، وقدمت لهم فروض الولاء والطاعة، من أول حضرتك وسيادتك إلى أتمنى أن أكون عند حسن ظنك... ثم تعرفت إلى رئيسي المباشر السيد/ رمضان مصطفى، الذي بدا بنظارته السميكة التي يحملها فوق أنفه ذو ذكاء ثعلبي ماكر، هذا الرجل بدا كما لو...

حسنا لن استبق الأمور سأعرفه أولاً ولن اتسرع في الحكم عليه....

بدوري أخذت من مرؤوسي التهاني والأماني القلبية بالتوفيق والنجاح...

وانتهى اليوم الأول لي على خير ما يُرام، عملي بسيط ما بين مراجعة بعض الملفات، وبين الإمضاءات.. كما طلبت مراجعة بعض الملفات.. وسيحضرونها وأثق أنها سليمة، لكن حتمًا سأجد شيئًا ما.

أولاً لأعرف حجم تلك الاعتمادات المالية وما هو قدرها، وأطابقها مع الحوادث المتكررة التي تخبر بأحوال القطارات، ومدى إهمال صيانتها وهو

أمر ليس بخفي على أحد... أعجبت كثيرًا بمكتبي الذي توفرت فيه وسائل الراحة من كرسي مريح وتكييف...

عدت للبيت بانتهاء الدوام....

بعدما أعطيت ليلي تقريرًا مفصلاً عن يومي كاملًا، والتهيت بإعداد الطعام...

لكن مازال الوقت مبكرًا، حاولت تصفية ذهني بسماع بعض الموسيقى... لكن هيهات.. مازال عقلي شاردًا بها نادمًا قلبي الذي يهوى الهفوات، على تقطيع تلك الورقة موبخًا نفسي للمرة الألف، نعم أنا أفعل ذلك لكن لا تتعجبوا، لست خائنًا أبداً، فقط أترك نفسي للهوى وأحب أن أصدق هذا، بل أشجع إعجاب ولوعة الزميلات بي خصوصًا الشابات الجميلات، ذلك يمنحني إطراء كبير، كوني ما أزال وسيمًا مرغوبًا فيه، لكني لا أشعر بارتياح هذه المرة، دومًا كنت أهذب قلبي من تلك النزوات، وكانت لا تعدو كونها علاقات عابرة سطحية لا شيء فيها، لا احتسبها أبدًا خيانة ولا أنظر لها حتى على أنها لمم...

لماذا اتأرجح بين الصواب والخطأ!

كنت أعرف لي حدًا في تلك الأمور، وكانت هناك زوجتي عصى الارتكاز التي اعتمد عليها في دحر تلك العلاقات، ودفعها بعيدًا عائدًا غير نادمًا إلى قواعدي سالماً، فلم أصل في علاقاتي حد المجون والسقوط، فهي نزوات بريئة.

تذكرت ليلي وكلامًا قد قالته، ولم يبدو منطقيًا، كانت تبكي قائلة: كنت دومًا تعود أما الآن... وقد أصبح بيننا بلاد...

أكانت تعلم، أشعر حقًا أنني مغفل.....

المرأة دائمًا تعلم بتلك الأمور.. تضبط زوجها سارحًا في ذكرى... أو متلبسًا بابتسامة على ثغره؛ لتذكره أمرًا ما أو متنهدًا بأسي الفقد والشوق؛ لانتهاء نزوة طارئة دون أن يمل بعد منها، نعم معظم هذا العلاقات تنتهي بالملل، فلن أصل بها لحد الجدية، فلست مغفلًا، كل نزواتي أمور غير جادة، لكنها هامة لي، إنها الوقود الذي يدفعني لإكمال حياتي، بعد الفتور الذي أصاب علاقتي بزوجتي... لكنها أبدًا لا تعني شيئًا... كما أنها من طرف واحد وهذا الطرف ليس أنا، أنا فقط متفرج ومشجع، فقط أريد أن أشعر أنني حي مرغوب فيه... حتى الرجال يريدون أن يشعروا بذلك، هذا ليس حكرًا على النساء، خصوصًا في سن معينة، وتلك العلاقات العابرة البريئة تمنحني هذا...

أشفق على ليلي فكم جعلتها تعاني وتغار، وتصمت على نزواتي وتداري عليها بالصمت والصبر، وكزوجة حكيمة تحافظ على بيتها.

وذلك لأنها تعلم جيدًا إنني في كل مرة أعود إليها، حقاً فأنا لا ولن أحب غيرها...

أما الآن إلى ماذا استند؟ وبماذا استعين وأنا بعيد عن عصاي وصخرتي؟

بينما أنا سابح في أفكاري، وضعفي كما الطفل الذي يرتكب الأخطاء معتمدًا على غفران أمه.. يتحامى باحتوائها ويعول على صبرها... إذ فجأةً... دق جرس الباب ففتحت.. ووجدت أمامي امرأة رائعة الجمال.. دفعتني للداخل وأغلقت الباب مستندة عليه بظهرها..

نظرت إليها مندهشًا وقد نسيت كل حروف الهجاء... أنت لا تريد أن يراني أحد وأنا أدخل هنا.

أنا ظننت... أن أحدًا يراك.. تلعثمت كشابٍ أحمق بلا خبرة مع النساء يا لغبائي، سأصمت حتى استعيد نفسي.. أكيد بدوت أمامها كالمغفل.. أشعر بتلك الصفة تصبغني بالآونة الأخيرة، من راسي حتى أخمص قدمي.... حتى أنني سمعت صوتًا يتردد بداخلي مغفل.. مغفل.. مغفل

أصمت يا أبله

أخذت أتأملها

كيف أصف جمال "بثينة" جاءت كصوتها واسمها لا "بثينة" لا يليق بها.. هي حورية باهرة الجمال، كل شيء بها جميل، لكن أجمل ما فيها صوتها، فكان كإحدى الآلات الموسيقية، ببحته المغرية العذبة، لم تكن من أهل الريف كنت أعلم من صوتها، والآن تأكدت من هيئتها واعتنائها بهندامها؛ فثوبها كان من أحدث صيحات الموضة، وربما موقع عليه من قبل دور الأزياء الشهيرة، يلتف على جسدها المثير بإغراء، مبرزاً مفاتنها الصارخة، و انحنائها اللين، بوجه جميل مزين بيد محترف...

ماذا هنالك لما أنت صامت..

فقط تفاجأت لم أظن أنك ستأتين للبيت..

ضحكت ضحكة رنانة ساحرة وساخرة كذلك

لم أكن أظن أنك ساذج إلى هذا الحد...

استفزتني وأثارت اعتدادي بنفسي وبرجولتي.. استجمعت نفسي بصعوبة وأخفيت توتري...

من فضلك تحدثي ما الأمر الذي أردتِ إخباري به فلا وقت لدي... يا لي من كاذب!

ألن ترحب بي!

ماذا تريدين بالضبط، ما هو الأمر الهام!

أجلس واهدأ وسأطلعك على كل شيء..

حسناً هدأت... تحدثي هاتِ ما عندك أو انصرفي. وإن كنت اعتقد أنه ما من شيء لديك لتقولينه!

حقًا اسمعني وستشكرني لاحقاً.. سأخبرك سر تلك الاستراحة.

استراحة!!

أجل هذا المنزل الذي تسكنه حاليًا

تطلعت إليها بفضول

لا تندهش هكذا، فهذا ما بني من أجله، أتظن حقًا أنهم يمنحون الموظفين منازل كهذه، المنزل كان في الأصل استراحة يمكث بها كبار الزوار من مسؤولي الوزارة،

وخصوصًا شخص معين كان يأتي كثيراً ومعه.. حسنًا أنت تعلم

ما الذي أعلمه..

كان يأتي ومعه بعض الصديقات... لكن هو معظم الوقت خالٍ ولا يقطنه أحد.

وإن كان حتي ما تقولين صحيحًا... فما الغريب في ذلك..

فقط اسمع لنهاية الكلام...

محدثًا نفسي استطيع أن أسمعك للأبد... ولن أمل أبدًا

رغم أن "بثينة" رائعة الجمال في كل تفاصيلها.. لكنها كبيرة في السن هذا ما اتضح لي عندما اقتربت، حال جلوسها على مقربة مني، فهناك تجاعيد رسمتها أعوامها الماضية حول عينيها، لكن من يهتم بذلك، هناك دومًا ما يجذبني في المرأة، أمر تتميز به كل واحدة دون الأخرى، وبالنسبة "لبثينة" فقد كان فمها المكتنز وصوتها الناعم المبحوح، وتقوس شفتيها وهي تتحدث بنعومة.. مازالت جميلة؛ فهي تهتم كثيرًا بإبراز فتنتها وجمالها... بضجر شديد سببه أفكاري الجامحة يجب أن أصرفها قبل وقوع ما لا يُحمد عقباه..

أرجوكِ لا وقت عندي، لدي عمل في الصباح الباكر.

أتريد النوم، لن أعطلك إذن... اسمعني جيدًا لقد وقع حادث ما هنا...

حادث!!!

أجل... هناك امرأة انتحرت.. لا أحد يعلم لما اختارت هذا المكان الشبه مهجور، كي تشعل النار في نفسها وتحترق، ويحترق معها المكان كله، ولم يستطع أحد إنقاذها... ربما لذلك اختارت هذا المكان البعيد حتى لا يكون هناك أي فرصة لإنقاذها، البائسة أرادت الموت بشدة.

كنت مشدوها لكل ما تقول مذهولاً لكني تماسكت جيدًا، قائلا أدعي الشجاعة: ثم ماذا بعد...

ماتت الفتاة والمكان احترق عن آخره..

والد الفتاة هو من جدد الاستراحة على نفقته، بعدما أجبره رئيسك المباشر على ذلك، ولن تصدق كيف....

السيد رمضان!.. حسنًا كيف!

بأن ضغط السيد رمضان و صديقه مأمور القسم على دجال المنطقة، الذي لا يستطع أحد أن يرد له كلمة، ففعل الدجال ما أمر به، من إيهام والد الفتاة أنه يجب أن يقوم بإصلاح الاستراحة على نفقته؛ لأن روح ابنته تأن ولن تهدأ حتى يتم هذا الأمر، وقد فكان، وأصلح الرجل كل شيء على نفقته وعلى أكمل ما يكون.

إلى هذا الحد يصدق سكان القرية من البسطاء هذا الدجل، بحق الله الفتاة ماتت منتحرة... فكيف بأي حال من الأحوال ترتاح روحها وتهدأ... وإن كان هناك دجال نصاب لم لا يُقبض عليه؟..

أنت لا تعرف كيف تدار الأمور هنا، الدجال وجوده مهم للجميع بالاتفاق مع رجال الأمن؛ فهو يُبقي الأهالي تحت السيطرة ويحفظ الأمن والأمان..

الأمن والأمان، أليس هذان الأمران من وظيفة رجال الشرطة!

استمع لباقي القصة..

حسناً، أكملي.. ابتسمت ابتسامة ظفر بعدما استرعت انتباهي كاملاً، فتابعت...

وبعدما تم تجديد المنزل.. جاء حضرة المسؤول الكبير ذات يوم للمكوث بضعة أيام، ولم يمكث كعادته، بل بقي ليلة واحدة وولي هاربًا.

لماذا!!

أشاحت بنظرها تلف المكان كله بعينيها المتسعتين، ثم همست: من الواضح أنه شبح الفتاة الذي راح يظهر في كل مكان حول البيت وداخله، فرأى الجميع أن يتخلصوا من هذا المكان.. ز

ضحكت وهي تتابع الحديث...

تخيل حتى أنهم لم يأخذوا قشة منه خوفًا وهلعًا من شبح المرأة المحترقة، فكان أفضل حل هو إعطاؤه لأحد الموظفين المنقولين حديثًا.

فكان أنا، لأنني لا أعلم شيء عن هذه القصة.

لقد أخفوا الأمر عليك جيدًا!

أخذت أتذكر محسن وتوتره يوم أقلني من محطة القطار إلى هنا، بالطبع يعلم كل شيء، أخفيت خوفي وتماسكت، فقد جاءت اللحظة المناسبة التي استطيع فيها استعادة اعتدادي بنفسي، وتفوقي في أمر ما كرجل، أمام تلك الأنثى المشتعلة بلا نار؛ فقلت بثبات حاسدًا نفسي عليه.. ما حدث لتلك المرأة أمر مؤسف حقًا، لكن لم يجدر بهم إخفاء هذا الأمر عني... كنت سأعلم عاجلاً أم آجلاً فلا شيء يظل مخبأً للأبد، ثم أنني حقًا لا أخاف من الأشباح.. لكن أشكرك على المعلومة.

فجأة اقتربت مني هامسة في محاولة أخيرة لبث الرعب في نفسي... البعض رآها مشتعلة تجري بين الحقول وحول المنزل..

قلت مهتزًا من الداخل، لا اهتم بما رآه البعض، أنتِ تضيعين وقتكِ، لم يكن من الواجب عليك أن تهتمي بإخباري بهذا، وإزعاج نفسك هكذا، حقًا لا فرق معي علمت أو لم أعلم فأنا لا أخاف.

ثم وقفت، فوقفت اعتقدت أنها أنهت مهمتها وسترحل، اقتربت مني فابتعدت لأفسح لها المجال؛ فاقتربت أكثر ومالت علي فتراجعت مرة أخرى، ولكن صدي لها زادها إصرار؛ فتعلقت برقبتي مقربة فمها من فمي.

حقًا.. لم أدر كيف مرت تلك الثواني التالية لاقتراب هذا الثغر الشهي المكتنز بروعة وإغراء مني، اشتبكت معها في قبلة حارة قطعت أنفاسي وأنفاسها، لا أدري لكم من الوقت بقينا على تلك الحال فلقد لفني صمت مطبق، حال دون شعوري بأي شيء عداها، وراحت يدي تستكشف أجزاء جسدها النابض..

سحبت نفسها من بين يدي بصعوبة بالغة، كنت كما الطفل الذي تشبث بلعبة أراد أن يستكشف محتواها، وعندما تسني له ذلك أخذت منه عنوة..

قالت بصوت متهدج مملوء بالرغبة ليس سيئًا، علىَّ الرحيل.. الوقت تأخر، كانت تتطلع إليَّ بعين أنثى راضية نالت مبتغاها من رجل لم يُخيب ظنها..

"بثينة".

نعم!

أنا لا أعرف عنكِ أي شيء!

حقًا... من أنتِ، كل ما أعرفه عنك أنك "بثينة" الجارة، ثم ماذا بعد!

أولا يكفي هذا؟!

أرغب في معرفة كل شيء عنكِ، أمتزوجة أنت أم عزباء أين تقطنين؟!

لم كل تلك الأسئلة والفضول، ألا تستطع أن تبسط الأمور.. صدقني لن ترغب في التعمق في أحوالي الشخصية؛ لأنه لا فائدة من ذلك؛ فلنكتفِ بما نعرف عن بعضنا البعض..

رحلت.. فناديت وأنا اتطلع حولي بوجل "بثينة"، أحقاً ما قلت عن المرأة المحترقة!

ضحكت ضحكة رنانة ولم تتحدث، لكن عادت وقبلتني مودعة؛ ورحلت بينما أصداء ضحكاتها تملأ المكان وتمزق قلبي هلعًا، لكن شغلت عن ذلك الأمر بأمرٍ آخرٍ...

رحت أفكر مأخوذًا بما حدث بيني وبينها، كان غريبًا وسريعًا جدًا، لم تكن هناك أي فرصة للحول دون وقوعه فكان ما كان وحدث، أعلم أنه خطأ كبير، لا أدري ما الذي اعتراني حين اقتربت مني ولفحتني حرارة جسدها... اعترف أرغب بالمزيد، يا الله فيما أفكر، رغم أني على يقين بخطأ ما حدث، والخطيئة أمام عيني جلية صارخة، واضحة وضوح الشمس إلا أنني مازلت أرغب في الوقوع فيها رأسًا على عقب وبلا هوادة..

أعلم أن ما حدث وما سيحدث ذنب كبير، وما سينتج عنه أمر فاضح ومعيب.

ورغم ذلك أسير إليه كالمنوم بينما أنا مفتوح العينين متيقظ جدًا، في كل عرق نابض بل في كل خلية مني، أرغب ولا أرغب!! لا أعلم ما أنا مقبل عليه من أمر مجهول، لكن أعلم أن كل شيء خاطئ، ورغم ذلك الفكرة تأخذني كلية، لم يحدث أبدًا أن تماديت لهذا الحد.. لكن لم يفت الأوان، ليس بعد، نعم سأنسى ما حدث، حقا أرغب في التصدي لما سيحدث، وهو نتيجة حتمية لتلك البداية النارية، هذا إذا التقيت بها مرة أخرى، لكن كل جوارحي ضعيفة تأن وتطالبني بالمزيد.. منها من "بثينة".

تذكرت ليلي.. فبدأ ضميري يوخز فيِّ، اتصلت بها قبل أن أنشغل عنها بأفكاري المدمرة، لعل ضميري يتيقظ ويحول دون سقوطي، حاولت قدر الإمكان أن أكون غير مبالغٍ في عبارات الغزل والتودد، فهذا ما يكشف الرجال عادة.. والنساء تعرف هذا الأمر جيدًا.

"ليلي" حبيبتي كيف حالك؟

بخير وأشتاق لك كثيرًا.. فماذا تفعل؟

أفعل.. لم أفعل أي شيء... يا الغباء أنا مرتبك جدًا، وحقير جدًا، وسينكشف أمري بسهولة جدًا.

ألا تشتاق إليَّ!

نعم وكثيرًا... كيف حالك؟

أنا بحال جيدة.

انتبهي فقط لنفسك ولا تشغلي بالك بي.

كيف ذلك وأنا لا أعلم كيف تأكل أو تشرب.. فأنت لم تعتد أن تهتم بنفسك.

حسنًا هذا هو الوقت المناسب لأتعلم كيف اهتم بنفسي.. ولأعرف قيمتك في حياتي.

صمتت، فقلت قبل أن تبدأ بالبكاء لألهيها:

كيف حال أبنائنا وأمي؟

الجميع على خير ما يرام!

obeikan.com

حمداً الله..

وقبل أن تكمل الحوار قلت ـ فقد كان الحديث معها فكرة غير مجدية وقد استحوذت بثينة على عقلي وشغلته ـ هيا الآن سأذهب للنوم، فعندي عمل في الصباح.

حسنًا، انتبه لنفسك، تصبح على خير!

تصبحين على خير!

بقيت وحدي في مواجهة نفسي مرة أخرى، لم يحدث أبدًا أن خنت ليلي، ليس بهذا الشكل، لكن عندما تصبح مفرطًا في جزء سيسحبك هذا الجزء للكل، أجل هذا ما حدث..

مَن هي.. لا أعرف!

متزوجة أم عزباء، لا أعرف أيضًا!

أحقا أريد أن أعرف.. لا.... لا أريد!!

يا لك من مغفل أبله!

بقى أمر..

دائمًا وأبدًا شعور المرء لا يكذب إلا نادرًا، فها هو السيد رمضان بعلاقاته الأخطبوطية بمن حوله ودهائه الثعلبي مثلما ظننت فيه تمامًا.

لا استطيع مواجهته لأنه السيد العظيم، لكن غدًا سأواجه دودة القز المدعو محسن أفندي.. لا بل السيد إمعة، وسأفهم منه كل شيء.. وسأحاسبه.

حاولت النوم، لكني تذكرت قصة المرأة المحترقة، جلت بناظري في أرجاء المنزل الذي يبدو موحشًا في الليل.

بالفعل أشعر بالخوف ليتني ما علمت، تبًا لكِ يا بثينة، وتتبجح بأني سأقوم بشكرها على المعلومة... ما هذا؟ ألست رجلاً، وماذا فيها أنا رجل وأنا أخاف كأي كائن حي، صرفت نفسي عن التفكير، مثلما تفكر نساء المنطقة في خرافات الأشباح والعفاريت والدجالين، لكني تذكرت هذا الشيء القافز بين الأعشاب في أول ليلة لي في المنزل.. ماذا كان، ارتعدت لتلك الذكرى، لن أخبر ليلي بأي شيء حتى لا يستبد بها القلق، وحتى اكتشف صدق تلك الحكاية الخيالية للمرأة المحترقة، ثم عدت لأفكر بها "بثينة" ماذا لو كانت هي الشبح.. لا، هذا مستحيل هي حية للغاية، وأكثر من المطلوب بكثير، لم تخبرني متى ستأتي مرة أخرى، ما هذا الغموض...

قضيت ليلتي تلك بين وساوس اليقظة وكوابيس المنام... وأخيرًا نفضت عن كاهلي كل ذلك، وقررت الاستيقاظ، يجب أن أتحدث مع ذلك "المحسن" وأعاقبه.

ما أن أشرقت الشمس فأضاءت الأرض بخيوط من نور شاحب قبل السطوع، أخذت أفكر.. بما أن الجميع هنا يؤمن بالخرافة حتى أنا نفسي.. سأتسلى بعض الوقت، سأكون الهر المتخم الذي يشعر بالملل؛ فيبحث عن فريسة لا ليأكلها، لكن ليتسلَ بها.. وفي حالتي هو انتقام أيضًا أخذت شرشفًا أبيض، وذهبت للحقل خلف المنزل الذي تطل عليه شرفته الأرضية، وقد اختمرت الفكرة برأسي المختل المتعب، فنصبت فخي وصنعت ثقبين في الشرشف، وعلقته على عودين من القصب الجاف.. تأكدت أن البطارية التي تضيء الكشاف مشحونة عن آخرها، و بالطبع سأقوم بتشغيلها قبل وصول محسن أفندي متمنيًا أن تصمد لوقت كافٍ.

ابتسمت لنفسي على هذا الدهاء والمكر.

ذهبت لوظيفتي المملة، أجل هذا ما اكتشفت في الوظيفة وعالم الموظفين، هناك ركود من أسفل السلم الوظيفي لأعلاه، وكلما ترقيت كلما زادت حوافزك وقل جهدك، وبرزت صلعتك ومعها كرشك، مازلت انتظر تلك الملفات لأراجعها... قررت هذا اليوم أن أتجول حول المنزل ماشيًا، وبهذا أحرق وأحارب أي سعرات حرارية زائدة غير مرغوب فيها، وهذا ما سأفعله من وقت لآخر... في العمل، كان لدي الوقت لأفكر في وضعي، لازال هناك فرصة لإنقاذ روحي من أمر خاطئ سيهلكني.. ثم أعود وأتذكر " بثينة " فيئزني شيطاني أزًا، محببًا إلي الأمر بكل حجةٍ فارغةٍ، مهونًا علي تارةً، ومداعبًا لأعصابي تارةً أخرى، بتذكيري بقبلتنا الساخنة مرارًا وتكرارًا، ورغم كل ذلك ومن سابق رؤية للمستقبل القاتم، إلا أنني مازلت أتطلع للقاء الثاني، متخيلاً في عقلي كل تفاصيله الحميمية.. كأن الأمر خارج عن سيطرتي كلية.

خائن نعم.. لكن لا أسمح بنعت ورمي كل الرجال بتلك البلية والكبيرة الساحقة المهلكة، ليس كل الرجال خائنين، هناك رجال صالحون، لم إذن لا أكون منهم.

حقًا.. أحاول العدول، لكن تأتي نفسي الأمارة بالسوء تهدهد نفسي المطمئنة الرافضة التي تزوم، وتطالبني بالعفاف، وتخبرها بسخافات ومن تلك السخافات، التي تخبر بها نفسي الإمارة بالسوء نفسي النقية التقية، التي اتخيلها ببراءة وعفة ابنتي الصغرى خديجة، فأتصورها قابعة في مكانٍ عالٍ باردة ترتعد من الخوف، وهي ترى أمامها هوة عميقة، وآتي أنا أو الجزء الفاسد مني فيطمئنها بأن كل شيء على ما يرام، وأنني منتبه فأهدهد أعصابها لتنام وتثق بي؛ بينما أنا أنوي أن أدفع بها لتلك الهوة حيث الجحيم المستعر.. ورغم ذلك لا أخذ قرارًا حاسمًا بالتصدي، وعمل اللازم حتى لا يحدث ما هو

متوقع حدوثه، وتارةً أقول لنفسي إن كنت سأصبح يوماً ما كاتباً وأديبا، يجب أن أحمل العديد من الخبرات في كل المشاعر الإنسانية، والخيانة من أسوأ المشاعر الإنسانية، ولا أرفض فرصة تأتيني لاختبار أي نوع من أنواع تلك المشاعر، من يرغب في خبرة في هذا الأمر العفن... أكاد أجن..

أنا أتحدث كثيرًا وأنصت كثيرًا، ولا أضيع فرصة تأتيني لاختبار أي نوع من أنواع تلك المشاعر، حسنًا ربما أنا أفعل ذلك حتى من باب سد ما أشعر به من فراغ... كاذب.. لم تكمل حتى الأسبوع فأي فراغ هذا، بل هو فراغك أنت من العفة والخلق..

حسنًا. هناك فرص لا تتكرر في الحياة سوي مرة واحدة، ثم أنني كانت لي هفواتي ونزواتي كرجل.. نعم.... وأيضًا هذه هي، لكني لم أصل حد الخيانة الجسدية.. ليس بهذا الشكل، وإن كنت أرى أنه لا فرق بينهما، بل إن خيانة الروح والقلب أشد وأقسي، كلام فارغ، الخيانة خيانة، أن يميل قلب الرجل لامرأة أخرى أمر أشد من القتل وهكذا الأمر مع النساء أيضًا.

لا أتخيل أن تعرف زوجتي رجلًا وتقع في عشقه.. لا لا، لن تفعل ليلى ذلك، فهي لا هم لها سوى أن ترعاني وباقي أسرتها بتفانٍ وإيثار، كما أنها تعشقني... هل أنا متأكد مما أقول، توتر وفتور العلاقة الحميمية بيننا يخبر بأشياء وأشياء، لماذا لن تفعل وقد ضيقت عليها الخناق ولم أبق لها وقتًا لنفسها، مساحةً تسمح لها بالتنفس والاسترخاء، وقد أصبحت تقتطع من وقتها، الذي كان لابد لها أن ترتاح فيه، فبدلاً من تلك الفسحة، احتملت أعباءً أكثر، هي نصيبي الخاص من المسؤولية بحجة الدراسة والاجتهاد للوصول بأفراد أسرتي لمستوً أعلى وأكرم، لكن راحتها هي الأمر الهام، والذي كان سيمنحها الراحة النفسية، والبعد عن الضغط والكبت؛ لتواصل عملها الدؤوب بأريحية أكثر، ثم أنني دوماً غير متواجدٍ لأسمعها تشكو، أو تبوح بأناتها؛ فراحت تعبر عما بداخل نفسها من متاعب بتلك النوبات من البكاء والغضب والثورة، كل

تلك النوبات رسائل تضج بالشكوى، وأنا أصمت عنها، لم انتبه لها أو أبث فيها التشجيع ببعض العرفان والشكر، فهذا يُجدي النفع دومًا، لكن بغباءٍ رحت أضن بهذا الأمر عليها لمجرد علمي لضمانة تواجدها، فنحن في عصر جديد، الأولاد فيه يربطن المرأة أكثر من الرجل؛ لذلك فهي لن تذهب لأي مكان، وإن حدث وتواجدت في البيت في وقت ما، فليس لأجلها فهناك دائماً غرضًا في نفسي، لأشبع جوعي لطعام أو لأشياء أخرى دون الانتباه لما تريده هي، أو ما ترغب فيه.. لا عجب في فتور علاقتنا الخاصة

ها أنا ذا هنا أعبث بينما هي هناك تقوم بدوري ودورها معًا، ولا شكوى لها سوى أنها تفتقدني... لكني أثق فيها وأعلم أنها مخلصة.. لا يسعني سوى الخجل من نفسي

ما الذي أفكر فيه أيصل الأمر إلى حد أنني أعزو الفتور في علاقتي بزوجتي، إلى أنها تميل بقلبها لغيري، ولما؟! لأبرر لنفسي ميلي لغيرها وخيانتها، عدت للمنزل بصداع قاتل ورغبات مجنونة وفكر مستعر محموم.. مشاعري تختصرها كلمة واحدة.. متبلبل!!

ماذا أفعل حرب طاحنة أكلت قلبي وحديثي مع نفسي أتلف خلايا مخي، تناولت حبتين من الدواء وخلدت للنوم غير عابئٍ بشبح المرأة المحترقة، سأنام وإن أتى الشيطان بذات نفسه، لكن لم أنس قبل أن أنام أن أطلب من السيد إمعة أن يجلب لي في المساء قائمة ببعض الأغراض التي تنقص المنزل، وبما أنني كنت سخيًا معه، رحب كثيرًا بالأمر ووعدني بالحضور عند المغرب..

وهذا ما أريد، فقد عقدت العزم وانتهى الأمر، سأصرف نفسي قليلاً عن أفكاري المضنية، وبالفعل في موعده أتى.. كنت قد أزلت النعاس عن عيني

بحمـام بـارد أنعشـني، وأضـأتُ الكشـاف قبـل أن يجَـن الليـل، وانتظـرت المغامرة... رحبت به عند الباب..

أهلاً محسن!

أهلاً بك سيدي! أحضرت لك كل ما طلبت.

تفضل إذن لا تقف هكذا... أظهر كثيرًا من الاضطراب والتردد، ظل واقفًا عند الباب وكأنه يخشى الدخول للمنزل، مد يده ليناولني الحقيبة، فلم أدع له المجال أعطيته ظهري، ودخلت وتركته حاملاً الأغراض وواقفاً عند الباب مما اضطره للدخول..

دخل، وقد كان يعرف المكان جيدًا، يبدو أنه سبق له إمداد من اعتادوا المكوث هنا بالمؤن..

أشكرك جزيلاً على ما فعلت!

العفو أنت تأمر وتطاع، وأنا خير من يصلح لتلك المهام.

حسنًا يا رجل المهام... أعطيته مبلغًا كبيرًا تعبيراً عن امتناني، وطلبت منه الجلوس..

حقًا لا أرغب في هذه الأمسية، البقاء وحدي فأبقى لبعض الوقت، المنزل في المساء موحش للغاية.. تصبب عرقه وأخرج نفس المنديل، وأخذ يجفف حبات العرق، التي لمعت على صلعته وجبينه، كم أود أن أقحم هذا الشيء في حلقه؛ ليختنق ذاهبًا للجحيم، لا أعلم حقًا أكنت مغتاظًا منه أم من نفسي واستخدم الرجل لإفراغ غضبي وإحباطي، على كل حال لن أتراجع، سأبدأ لعبتي الآن

حسنًا سأبقى قليلاً..

قلت مغتبطًا بموافقته، سأعد شيئًا لنشربه، لن أتأخر عليك، ما أن تركته حتي أخذ يعد النقود بفرحةٍ ونشوةٍ كبيرتين.

أغلقت الباب جيدًا، ثم سحبت سكين الكهرباء؛ فسبح البيت في الظلام إلا من ضوء الكشاف الخارجي، وبما أن المنزل يقف وحده ضمن أرض فضاءٍ، ولا أسوار له فبدا شبحي المصطنع المزعوم مخيفًا حتى لصانعه، فإضاءة الكشاف مع العينين والشرشف، الذي راح النسيم يرفعه تارة ويخفضه تارة أخرى، بدا مروعًا بالفعل.. أخذ الرجل يصرخ مناديًا

سيد محمد، أين أنت؟

طبعاً لم أرد، فبشكل بديهي اتجه للشرفة ناحية الضوء، منجذبًا إليه كما الفراشة، لا بل كما الذبابة، حسناً الخطة تسير على خير ما يرام.. فما أن رأى شبح المرأة المحترقة الزائف حتى بدأ يصرخ بجنون...

انقذوني انقذوني، ستحرقني..

كرر الجملة كثيرًا وأنا مبتهج ابتهاج طفلٍ شقي، حتى راح صوت الرجل من شدة خوفه وصراخه؛ فسقط مغشيًا عليه، ماذا فعلت، أتمنى ألا يكون قد مات، مسرعًا أعدت الأضواء للمنزل، وأغلقت باب الشرفة، وأسدلت الستار عن مسرحي للخدع البصرية الهزلي، وأيقظته، محسن أفق يا رجل، ماذا دهاك؟ ظل الرجل مرعوبًا شاخصًا بصره لأعلى كما لو كان يرى الموت بعينيه، والعرق يتفصد من جبينه، ومن صدمته ولم ينطق إلا بعد بضعة دقائق، الحمد الله، مازلت حيًا.

ادعيت الجهل بما قول... أيخيفك انقطاع الكهرباء لهذا الحد، أعندك فوبيا من الأماكن المظلمة.

لا ليس ذلك.

ماذا إذن؟ المكان خانق سأفتح الشرفة

لا سيدي لا تفعل، أمسكت نفسي عن الضحك بصعوبة بالغة، حقاً لا أفهم ماذا بك!

اجلس ولا تفتح الشرفة وسأحكي لك كل شيء.

حسناً، إذا أردت أن تحكي، بالفعل حكى لي كل شيء مؤيداً ما قالته "بثينة حرفًا بحرف، واعتذر مني لعدم إخباري بالأمر قائلاً: أنا عبد المأمور.

في الواقع ما أخبرتني به عجيب، لكن الأعجب أنني كنت أظن بانقراض هذا الكائن الأسطوري، تلفت حوله برعب..

كا كا كائن!

فتابعت أشير إليه، عبد المأمور، ألم ننتهي من قصته مرة وإلى الأبد، فماذا حدث حتى تعترف لي الآن!

شاهدتها الليلة، وكذلك بعض الفلاحين رأوها، وسمعت ذلك، لكني اليوم.. اقصد الليلة شاهدتها بعيني.

حقًا، أخذت اقهقه من شدة المرح والتسلية.. ثم، أتريد أن أصدق هذه الخرافات..

أقسم لك لقد رأيتها واقفة هناك عند أول الحقل، تنظر لي وقد أمسكت بها ألسنة النار..

المسكين أصفر وجهه حتى إنني أشفقت عليه.

هل يعلم أحد من هي؟!

أجل إنها صفاء بنت الحاج إبراهيم، فتاة جميلة زوجها أبوها مبكراً لشدة جمالها، وكثرة خطابها فأنجبت ثلاثة أبناء، لكن يقال إنها لم تكن سعيدة في زواجها.

أكانت إذن على علاقة بسيادة المسئول الذي كان يقطن هنا!

لا.. لا، أنا لا أعرف شيء عن ذلك الأمر، أرجوك اتركني أرحل لأبنائي.

أشفقت عليه مرة أخرى لكن ارتباكه يدل على بمعرفته بالكثير عن تلك القصة...

حسناً تستطيع الرحيل، انتبه لنفسك جيدًا.

محسن: شكراً!

انصرف الرجل ولم ينظر خلفه، حتى لا تقع عيناه في عينيها مره ثانيةً، حتى أنا لن أجرؤ أن أذهب، لأزيل جسم جريمتي من ذلك المكان الموحش حتى يأتي الصباح، أطلقت ضحكتي المكبوتة متذكرًا حال محسن، وكيف كاد الخوف و الهلوسة أن تؤدي به، ثم أخذت أفكر في المرأة صفاء وما علمته عنها من معلومات جديدة، كيف ييأس المرء، ويصل به الأمر أن يتخلص من حياته، ثم سمعت طرقات فعلمت جيدًا مصدرها، ما أن فتحت الباب حتى اندفعت كعادتها مسرعة للداخل، كانت تتشح بملابس سوداء ساترة كل جسدها، من رأسها لأخمص قدميها، لم تتحدث ولم أتحدث، خلعت عباءتها وكان تحتها ثوب أبرز مفاتنها بشكل صارخ، بدا أضيق من جلدها، فجأة ودون مقدمات اقتربت مني وبدأت تقبلني، تصلب جسدي في مقاومة واهنة للغاية ومثيرة للشفقة.

صدقًا حاولت المقاومة دون جدوى، وكأن تلك المقاومة كانت حبيسة في مكان ما في داخلي، فلم ترقَ حتى للوصول إلى أي من جوارحي، حتى فقدت كل سيطرتي وغليت دمائي في عروقي وهي تضج ببطء ورتابة؛ فسمعت نبضات قلبي في أذني تدوي بصخب، عندها تنحى العقل والبصيرة وتخليت عن مقاومتي الفارغة من أي عزم، فكانت الغلبة للجسد وتطلبه الجائع غير العابئ فلم أحرك ساكناً؛ إلا وكيف يطفئ شهوته لإخماد تلك الرغبة المندلعة فيه؛ فبدأ تصلبي يزول وبدأت استجيب لها بحرارة أتون مشتعل، أخذت ألثم ثغرها ورقبتها وكتفيها المرمريين، زارعًا قبلاتي في كل مكان طالته شفاهي، لا أدري كيف صعدنا معاً إلى غرفتي بالدور العلوي، ونحن ملتحمان كجسد واحد، فما كان منا إلا أن اخمدنا تلك الرغبة المجنونة الجامحة، وما أن انتهينا حتى نظرت للساعة، ثم ارتدت ملابسها على عجل وقبلتني، ورحلت مسرعة.

"بثينة" ألا تبقين بعض الوقت؟!

لا استطيع لقد تأخرت كثيرًا، لكن اعدك أن أبيت عندك يوماً ما.

ثم قالت بدلال وغنج ماذا هناك أبدأت تشتاق إليَّ من الآن، وبابتسامة منتصر أرسلت قبلة مع الهواء، ثم ذهبت..

لم أكن أرغب في مكوثها لإعادة الكرة، أوكنت مبتهجاً لأنها وعدتني بمضي ليله كاملة معي.. رغبت في وجودها حتى تصرفني عن مواجهة ذاتي ومعاتبتها وجلدها بسياط الندم، غبي بماذا أفكر أيعقل أن تكون الداء والدواء، على مجابهة ذاتي بعد أن أخمدت الجسد، ونال مبتغاه من متعة حرام دامت للحظات قليلة جدًا، لتخلف بعدها خمول وضعف، الجسد عاري طريح أخلد إلى أرضه بينما الضمير عاد صارخًا مؤنبًا بكل سياطه.

لا وجودها كان قطعًا سيزيد الطين بلة، أما الآن وقد رحلت، مكثت وحيدًا، والروح سجينتي التي تقبع باردة خائفة متجردة من كل مشاعر

الطمأنينة.. تلومني بعد أن القيت بها في أسفل سافلين، وهي تصرخ مستنجدة وأنا أنظر لها ولا استطيع فعل شيء، لا أريد أن أفكر؛ أن ذلك مهلك ومضنٍ.

الآن وقد حصلت على ما راودت نفسي عنه وتمنيته، فماذا بعد؟؟

أهناك غيري يلام على ذلك لقد أوقعت نفسي بنفسي، مستجيباً لفخ الشهوات ملبياً لرغبة حيوانية، مستعرة تشب فجأة ثم سرعان ما تخمد.

أنا السبب، ومن غيري، تهاوني وتذبذبي بين الرفض والقبول هو ما اوقعني في ذلك، كان يجب من البداية أن أكون أكثر حزمًا.

وقد كنت موقنًا بتلك النتيجة؛ ومن ثم كان علي التصدي لها، لكني أردت ذلك وقد حصلت على ما أردت، بعدم التصدي له والسماح بحدوثه، تذكرت والدتي ودهشتي، لا يمكن أن أنظر لغير ليلى، كاذب مدعي... ثم ماذا!!

بعدما حصلت على ما أريد، لست سعيد أبدًا، أشعر بمدى نجاسة فعلي وعهر نفسي العارية المحطمة، في النهاية يجب أن أتحرك من مكاني لن أظل قابعا للأبد، حملت نفسي على النهوض بينما رغبتي الحقيقية هي أني اقبع مكاني للأبد، ذهبت لأشرب؛ فوجدت الأغراض التي أحضرها محسن ما زالت في أكياسها تطلعت إليها، فبدأت اتلهي بإفراغ محتوياتها ووضعها في أماكنها، كنت جائعًا، لكن لا رغبة حقيقية لدي في تناول أي طعام، مرة أخرى صعدت لغرفتي مسرح أكبر الكبائر، يبدو أن هذا المنزل معتاد على تلك الأمور، وقد بدأ بها السيد المسئول وأتباعه، وها أنا أكمل آخذًا دوري في عالم الانحطاط والرذيلة، لكن لا هناك ثمة فرق هو كان يقصد ذلك، وأنا...

ماذا؟؟؟

لم اقصد، كاذب، بل لم أتعمد جئت إلى هنا بسبب الترقية، فحدث ما حدث وكان عرضًا.... نعم هو كذلك، من يستطيع أن يكون الرجل الصالح، الذي

انفرجت له الصخرة بسبب فعلة فعلها، وهي تهيئة وضع ملائم للرذيلة ثم العدول والإعراض، بينما كان على وشك الإتيان بهذا الفعل وقد هم بالفعل لولا عصمة الله له، أمر جلل وعظيم لا يستطيع فعله إلا الرجل ذو البأس الشديد، حتى أن الله قد أقر بعظمة ذلك الفعل وقوته، فانفرجت الصخرة بنصيبه من الإحسان، ماذا أقول! هكذا يفعل الشيطان يزين لي الأمر مهونًا على فعلتي.

أزلت الشراشف فقد التصقت رائحة "بثينة" في كل جزء منها لتذكرني بلذة مؤلمة، شاعرًا بأن هذا الأمر سيزيل ما حدث، لكن شعوري لم يتحسن، الإحساس بعدم طهارتي لا ينبع من الشرشف بل هو من داخل نفسي....

وقفت تحت الماء البارد؛ كي أنظف روحي فلم يجدي ذلك نفعًا، حاولت النوم وبعد عناء نمت بضع ساعات، استيقظت وكان الظلام مازال حالكا تمامًا كظلمة نفسي، لكن أخذت قرار بأن أكف عن اللوم فما حدث قد حدث وانتهى الأمر، سأميت نفسي بأسوأ طريقة ممكنة فالندم شعور قاتل وباب التوبة مفتوح، سأتصدى لها، وأقلع عن هذا الذنب، وأتوب إلى الله، نعم هذا ما سيحدث، شعرت بارتياح، وكنت أكثر هدوءً بعد اتخاذي لهذا القرار، تذكرت عدتي للنصب، ذلك الشرشف المنصوب فوق العيدان الجافة، سأحضره بمجرد أن يظهر الضوء، ، بالفعل ما أن سطعت الشمس ذهبت لإحضاره، لكن أين هو، لقد اختفى، ظللت أتلفت حولي، ثم عدت مسرعاً إلى البيت، وظللت طيلة اليوم متعجبًا أفكر، من أخذ المصباح الكهربائي والشرشف، انستني تلك الواقعة أمرًا قد شغلني وأهمني حتى أنني ظننته حلمًا، ترى أين ذهب!

عدت بعد انتهاء الدوام إلى المنزل، وتحدثت في الهاتف مع ليلي التي أخذت تشكو من كل شيء فطيبت خاطرها، كانت أمي نائمة فلم أستطع التحدث إليها، أمضيت باقي اليوم أقوم ببعض الأعمال المنزلية، دافعًا كل

ذكرى لتلك الليلة حتى أنهكت تمامًا، ولم أنجح فيما أردت حقًا، كأن النهار يدحر الذكرى والليل يعود بها مجددًا فقد أظلم الليل توًا.. سمعت صوت دقات خافتة على الباب، كنت ما بين بين، ففتحت الباب حمدت الله لم تكن هي، بل أخرى لكنها شابة أكثر وكأنها مألوفة، كما لو رأيتها من قبل رغم أني أجزم أيضًا بأني لا أعرفها، جميلة جدًا لكن هناك في ملامحها أمر غامض، لم أعرف كنهه، حزن أم كآبة أو مزيجًا من هذا وذاك، كانت تحمل كيسًا بلاستيكيًا أسود اللون..

أتسمح لي بالدخول!

بكل سرور، تفضلي، لكن أواثقة من وجهتك، أم أنك ضللت الطريق.

بكل تأكيد، أنتَ الأستاذ محمد المنقول للبلدة منذ أيام.

نعم سيدتي، أنا هو.. قلت ساخرًا رغم ذلك لي شهرة واسعة للغاية.

حسناً بماذا أخدمك، مدت يدها بالحقيبة؛ فأخذتها منها، وما وجدته بها كان عجيبًا، كان بها الشرشف والمصباح.

أخذت أنقل بصري بين الأغراض وبين وجهها الصامت... مَن أنتِ ولم تلك الأغراض معك، ظلت واقفة بدت كغزالة شريدة خائفة، هلا تفضلت، لا تخش شيئًا، لست قاتلاً مأجورًا أو مغتصب أطفال... أحمر وجهها بشدة، جلست على طرف الأريكة.

آسف لم أتعمد مضايقتك أو إزعاجك، فقط مزاجي سيئ اليوم، اشرحي لي إذا تفضلتِ علي بذلك.

كنت هناك عندما أتيت لإضاءة هذا الشيء وصلت قبلك، واندهشت وغضبت مما رأيت وعندما وجدتك قادماً اختبأت، ومن ثم تبعتك للمنزل ورأيت ما حدث، ثم أخذت الشرشف والمصباح ورحلت.

كنت مندهشًا مما قالت... أنتِ جريئة وشجاعة وفضولية، مهلاً قلت أنكِ غضبت، لم وما شأنك بكل هذا، صمت قليلاً أفكر، أغلقت الستائر ولم أقم بفتحها لألحظ اختفاء كل شيء. يجب أن أفهم.... بنفاذ صبر وحدة قلت تحدثي وفوراً... كنت قاسيًا معها وكأنني أحملها ذنب تعكر حياتي، وما آلت إليه أموري.. فبدأت تبكي بصمت ودموعها تسيل على وجهها، فأحضرت لها الماء فشربت ومسحت وجهها بظهر يديها ذكرتني بابنتي الغالية، انفطر قلبي ورق لبكائها.. سامحيني أخبرتك أنني في وضع سيئ اليوم، لكن فقط أريد أن أفهم لم تتبعتني ولمَ تلك الأغراض معك..

لم اتتبعك، بالصدفة رأيتك ومشيت خلفك، ورأيت ما حدث صدفة لا أكثر، والآن أعطيك أغراضك وسأرحل.

قلت أباغتها، تسرقين أغراضي وترغبين في الرحيل بسهولة، سيدتي الصغيرة من أنتِ ولمَ أخذت الأغراض؟!! تكلمي أو سأتصل بالشرطة، بدأت تتوتر وضعت كأس الماء من يدها، ونظرت لي علها تجد اللين في ملامحي كانت تستعطفني بصمت، فأخفيت إشفاقي وأظهرت تصلبًا وعنادًا، ربما حضرت في الوقت المناسب لتشغلني عن مصابي وبليتي وأفكاري المنهكة لذاتي، هي نجدة أتت إلي ولا أنوي تركها ترحل الآن... فقلت محاولاً أن أجعل نبرة صوتي هادئة قدر الإمكان.. فقط أرغب في مبرر معقول أقبله كرجل عاقل.

سأخبرك، أنا أخت صفاء..

المرأة المنتحرة!!

نعم، فعندما أشاع أهل القرية إنها تظهر بين الزراعات، فأصبحت آتي هنا من وقت لآخر.

وما هدفك من المجيء، هل تصدقين مزاعمهم، ولو فرضنا بصدق تلك المزاعم، وقابلتيها فماذا ستفعلين، يا للجنون!

بدأت تبكي مجددًا، لا أعلم لماذا النساء يبكين دومًا، رغم بأسهم الشديد ومكائدهم التي لا حصر لها... حسنًا هي أحد أسلحتهم الفتاكة، هدأت وبدأت تستعيد صوتها وعادت للحديث.....

لا أعرف بما أصدق أو بما أفعل، منذ رحلت عني وبأسوأ طريقة ممكنة وأنا أكاد أجن، لا أجد راحتي حتى آتي إلى هنا وانتظر..

ماذا؟

لا أعلم، وكأنني أبحث عنها أو أنني سأجدها..

لكن لماذا اختارت هذا المكان بالذات لتنتحر فيه؟

نظرت إلي بارتياب

آسف لم أقصد التدخل، لكن هذا الأمر غريب ويحيط به الريبة والظنون.

أعلم إلى ما ترمي إليه، أنت وباقي أهل القرية لم تكن أختي على علاقة بهذا المنزل المشبوه، أو أي شخص اعتاد المجيء إليه، كم سعدت بما فعلت بمحسن ذلك الوغد الحقير...

محسن، ماذا فعل؟؟

يعلم بخبايا هذا المنزل وقاطنيه وزواره من النساء العابثات، يعلم أن صفاء لم تكن على علاقة بأيٍّ منهم، ومع ذلك لم ينفِ تلك الأقاويل عنها خشيةً على سمعته القذرة، إذ أنه لو أخبر أنه أبدًا لم يرَ صفاء تأتي هنا، فكيف يبرر نفسه بتلك الشهادة.

أيقول أنا أعرف كل النساء سيئات السمعة، ممن أتوا إلى هنا بل وإنني أحضر بعضهن بنفسي أحيانًا، من غير الممكن ابدأ..

يا له من حقير، لكن يبقى السؤال عالقًا بلا جواب لماذا هنا تحديدًا؟!!! أحقا ما يقال، حتى تتأكد من موتها، إذا كان الوضع هكذا، لمَ أرادت الموت بشدة؟

كنت سارحًا وأنا أحلل الموقف، فانتبهت وقد وقفت، من هي، أنا حتى لا أعرف اسمها...

إلى أين..

يجب أن أرحل، لقد تأخرت

مازال الوقت مبكرًا؛ حتى أنني لا أعرف اسمك.

اسمي غادة.. وقد أخذت أغراضك لأنها تسئ لسمعة أختي، التي بالفعل تلوثت ولا ينقصها تأكيدًا، بأنها مازالت تحوم حول هذا المنزل لارتباطها المشين به، يكفيها ما لاقت طوال حياتها، آسفه إذا كنت قد أزعجتك، سأرحل الآن.

غادة!

نعم!

نظرت إلي بعين مملوءة بالحزن؛ فقلت تستطيعين المجيء في أي وقت، للتحدث إذا أردت، فأنا أجيد الإنصات، ولست سيئًا لدرجة كبيرة، افتر ثغرها عن شبح لابتسامة واهنة، ورحلت..

تلك الفتاة تخبئ وراءها أمرًا كبيرًا، وتعرف أكثر مما قالت، لا أعلم إن كانت ستأتي مرة أخرى، لكن أتمنى أن تفعل.. قصة المرأة المنتحرة حرقًا، يشوبها غموض كبير، وسأجمع أجزائها...

كنت كمن أزال حملًا من فوق كتفيه، أن العالم مليء بالهموم والمصائب، حقًا تهدأ النفس وتطمئن لذلك الأمر، اطمئنان زائف، فالكل يعاني والكل مخطئ، عودة لنظرية القطيع، الكل سيء ويفعل ذلك، فلماذا لا أفعل.. نظرية التافهين التابعين(الإمعة).

نمت جيدًا تلك الليلة، لا أعلم لَمَ، كأن لقائي بغادة غير شيئًا في نفسي، وأحدث عندي نوعًا من السلام، استيقظت مستبشرًا ومر اليوم في العمل بشكله الروتيني المعروف، وأفضل ما في اليوم هو أنني لم أرَ وجه محسن أفندي، فقد عاد السائق الخاص بي من أجازته المرضية، عدت للمنزل، وما أن هممت أن أعد شيئًا من الطعام الخفيف، حتى أتت، مَن... ومن غيرها بليتي الكبرى بثينة، نعم أصبحت بلية ومصيبة مادامت ستوردني المهالك ‘إن لم أضع حدًا لها، جربت ولم يعجبني الأمر أبدًا، فكفي.. أعرف حدودي مع النساء في تركهن يعجبن بي أو حتى يعشقنني لكن قلبي لليلي وحدها، والخيانة الجسدية أمر غير واردٍ قبوله على الإطلاق، هكذا دخلت كزوبعة فضائية، وكانت تحمل حقيبة كبيرة، تسمرت قليلًا أنظر إليها فوبختني قائلة: احمل عني الحقيبة فهي ثقيلة ودعني أمر، ماذا دهاك أتريد أن يشاهدني أحد وأنا أقف على باب بيتك.

افسحت لها الطريق حاملًا عنها الحقيبة وكانت الحقيبة ثقيلة جدًا؛ فسألتها: ماذا بها؟؟

ردت قائلة: بعض الأطعمة والأغراض، فهل أنت جائع بما يكفي، كان كلامها مبطن وقد فهمت معناه فأجبت بلا لست جائعًا..

جيد.. أنا أيضًا غير جائعة، كم هي خبيثة في حبك خيوطها، فقد صاغت السؤال بشكل يوصلها للهدف، أيًا كان الرد جائع أم غير جائع، بدأت تقترب ببطء شديد، شبكت يديها الاثنتين معًا تطوقني لتضعف مقاومتي، فقلت ببرود: لكنني جائع وكنت على وشك أن أصنع شيئًا، كحيوان جائع يعرف هدفه جيدًا ما الذى يتناوله، لَم قلت إذن أنك لست جائعًا، فات أوان ذلك، ظلت تقبل كل جزء في وجهي على حده، وعلى مهل، ومن ثم لثمت وجهي على الجانبين حتى عثر ثغرها على ثغري، هنا حدثت الاستجابة والضعف والهذيان، لا أعرف حقًا ما الذي يحدث؟!! وكأنني أثمل بها وأصبح ضعيف الإرادة مسلوب الإدراك، ألم أعقد العزم على منع حدوث ذلك؟! ليس هذه المرة فقد فات الأوان، هكذا قالت نفسي الإمارة بالسوء، وهكذا يقع العصاة من أمثالي في حبائل الشيطان. لكن حقًا أنا أعلم أنه غير مطلع على القلوب، وما تحويه والصدور وما تحمله من نوايا ذلك أمر لا يطلع عليه سوى الله..

لكنها الجوارح، يطلع عليها يلحظ ميلنا للذنب، في كل عضلة تختلج متجهة للحرام من أول النظرة البريئة والكلمة الطيبة، إلى آخر الخطوات التي توصل لأحقر الذنوب، إلى كبيرة من الكبائر، خطوات الشيطان تحول كل فعل برئ لأخبث الخبائث، نعم لكن حقًا الفعل والعزم من داخل النفس البشرية؛ هو فقط يشجع فعل ابن آدم ويزينه ويهونه، لو كنت محصنًا بحق ما كان له سلطان على أيٍ من أفعالي....

فكان ما كان بيننا ووقعنا مرة أخرى وقضي الأمر، كنا مازلنا مكاننا ممددين نلتقط بعضًا من أنفاسنا المتقطعة، أو بمعنى أصح أنفاسي أنا، فلقد لاحظت أنها تدعي بينما ترقد باردة كما الجثة، فسألتها: لماذا أنا بالأخص!

نعم!

لماذا اخترتني أنا، هل لأنني غريب عن المكان!

ربما، لكن لا فرق لدى إن كنت غريب عن المكان أم لا، أنت وسيم، ما إن وقعت عيني عليك، قررت أنني ساحصل عليك وبأي وسيلة، فقد أعجبتني.

تتحدث عني وكأنني ثوبًا تشتريه، المرأة تقول أعجبتني.. بلا مزاح كنت أرغب في ماذا، بعض المشاعر، شيء مضحك كلانا يعرف نهاية تلك القصة، ويعلم ما يريده من الآخر، سيمل أحدنا أو يتعقل ويعود لجادة الصواب، لافظًا الآخر وتنتهي القصة، وأتمنى أن يحدث ذلك قبل وقوع ما لا يحمد عقباه، أما التعقل سيكون من جانبي، وأما الملل سيكون من جانبها، وستبحث عن آخر تحيك حوله خيوطها لتوقعه، وستجد فالأغبياء من أمثالي كثر، لكن لن انتظرها لتمل مني وتلفظني، لأن الأمر الذي أوقعت نفسي فيه لا يعجبني، ويباعد بيني وبين ذاتي وضميري، وكل من أحببتهم ذات يوم، والأهم سأظل احتمل في عنقي هذا الذنب حتى ألقى ربي به، وهذا أكثر من كافٍ، يجب أن ينتهي هذا الوضع في أقرب وقت..

كم أنا سهل المنال؛ فلم استغرق دقائق حتى سقطت بين شباكها، وقد كان عندي الميل الذي مهد لذلك وسهله، تابعت تقول وكأنها تضيف الملح إلى جرحي المفتوح، الذي بدوري رحت انهشه لأخرج ما فيه من قيح...

أتعرف أكثر ما يجذبني إليك؟!

قلت حانقًا.. دون النظر إليها، كم أود أن تنصرف عني سريعًا، ماذا؟؟

يعجبني بك ذلك الرفض وتلك المقاومة القصيرة الأمد، وهذا التصلب الواهن، وبعد، أنت تعرف ماذا... أشعر بنشوة لم أشعر بها من قبل.... فأنا امرأة تعرف كيف تجذب الرجل، حتى وإن كان رافضًا.

تابعت تتيه بنفسها وكأنها تتحدث مع أحدٍ غيري، ربما تتحدث إلى نفسها... نعم مازلت أملك ذلك، وكأنها بذلك صدقت على قراري، بإعدامها من قائمة معارفي في هذا البلد، وهي قائمة قصيرة جدًا.

لم أعد أرغب في الثرثرة مع النفس لكن ماذا تبقى لي لأفعله، ومع من أُثرثر في تلك الأمور الخاصة جدًا، لم يكتنفني أي شعور هذه المرة، رحلت بلا ندم أو لوم، ببساطة لا شيء، هل بدأت اعتاد الخطيئة، أم ماذا... لا فقط أصبحت أمني النفس بالتوبة، تسويف.... لا ليس كذلك وهذا عهد مني بذلك، ظللت استعيد أصداء كلماتها في عقلي، لم أكن أعرف هذه الفصيلة من النساء، سمعت ولم أصدق، هذه أول مرة أواجه إحداهن، كيف تكون المرأة بتلك الرغبات الجانحة الجامحة، التي تصل بها إلى أبعد حد، حيث نقطة اللا رجوع من بئر الرذيلة الكبرى؛ لتغرق فيه حتى تصبح ميتة، وذلك فقط للوصول للحظة انتشاء تفتش عنها ربما عند كل الرجال وليس عندي وحدي، متأكد من ذلك وقد رأيت النشوة في عينيها، وهي تحدث نفسها غافلةً عن وعيي بكل ما يدور بخلدها من أفكار.. لم اعتد ذلك، كشرقي لا أقبل أن أكون العاهر الخاص بأي امرأة، لتستخدمني وقت الحاجة، بعدما عرفت حقيقتها وما تبحث عنه، ليس عندي بوجه خاص فلا شيء سوى أنني أعجبها، وهي كانت تعجبني أيضًا.

لكني بالفعل بعدما عاشرتها أجد أنني أشبعت فضولي تجاهها، وبما أنه جسدي بحت، فماذا بعد غير اللا شيء، كما أرفض أن أتحول لعبدٍ لشهواتي، لأرضخ لها..

الرجل الحقيقي خلق على فعل تلك الأمور الحميمية بطريقة مختلفة عن ذلك، يجب أن يأخذ زمام المبادرة، حتى وإن أبدت المرأة الرغبة فهي تلمح ولا تصرح، هذا يترك مجال للفضول وهو أمر هام، إذا ضاع الفضول ضاع الحب، ولم يعد هناك قيمة للمعاشرة تتحول لفعل روتيني بارد، أحب أن أتودد لامرأتي وأُرغبُها بشتى الطرق، وأنا جيد في ذلك، وازداد رغبةً كلما تمنعت، وأشعر بالتحدي كلما نأت، فالمرأة الحقيقية تفعل ذلك عالمة بمدى تأثيره على الرجل، إنه التحدي الذي نادرًا ما يسقط فيه الرجال، لكن لا بأس بالسقوط أحيانًا، للحد من الغرور عندها يغدو النجاح أمرًا عظيمًا؛ يمنح شعورًا رائعًا، عند ذلك فقط اكتفي واكتمل.. قد كنت كذلك أنا وليلى قبل أن يصيبنا الفتور، هذا ما سأهتم باستعادته مستقبلً..

الرجال من كل الجنسيات مطاردون بطبعهم، تجذبهم الأنثى التي تعدو مبتعدة بحيوية وعزم، وليست تلك القابعة تنتظر فرصة انقضاض على أي رجل، لا فهذا الصنف لا يجذب الرجال، ليس لوقت طويل على كل حال، حتى أن بعض الطيور تفعل ذلك، تتودد راقصة للإناث، وتتعرض للرفض، والنقر والركل خارج الأعشاش لتنال مبتغاها، قطعًا لا علاقة لكل ما يحدث بيني وبين تلك المرأة بالحب، ولا حتى استطيع أن أطلق عليه علاقة حميمية، هو إفراط في محبة تلك الشهوة وتغذيتها، حتى تخرج عن المألوف وتصيب صاحبها بجوع مستمر؛ لتلبيتها تمامًا مثل الإدمان، إنه الجنس فحسب، ومع بثينة بالأخص ـ امرأة مثل بثينة ـ اعتادت شيئًا وفقدته، وهي في بحث حثيث عنه ستفعل أي شيء للوصول إليه، أما الحب يختلف تمامًا، الحب لا ينتهي بالعلاقة، بل تلك العلاقة الحميمية تجئ متوجةً للحب، وكذلك أشياء أخرى كثيرة من ميل للآخر واهتمامات مشتركة كثيرة جدًا، واحترام وصداقة، إذ أنه آجلًا أو عاجلًا تنطفئ جذوة هذا الشبق... ويبقى كل شيء آخر ليقتات عليه كلا الطرفين لما تبقى من الحياة، عدت للدور السفلي، كانت "بثينة" قد أفرغت

محتويات الحقيبة فوق طاولة المطبخ، أطعمة من كل صنف وفاكهة، لم تبخل أو تنس شيئًا من ملذات البطون، فقمت بجمعها في حقيبة لأتخلص منها لاحقًا.

ماذا تظن نفسها فاعلةً، تبًا لها.. ولكنني مازلت جائعًا، استأنفت عملي قبل مقاطعتها لي، وبدأت أعد الطعام، على أنغام أغنية قديمة في الراديو، "أنا اللي استاهل كل اللي يجرالي الغالي بعته رخيص"... وبدأت أقول آه يا ليلى والله لم أبعكِ ولا بكنوز الدنيا، أجل أنا مجموعة من المتناقضات، أحمل كل بذور الخير والشر بداخلي، وكأنني جننت أو أصبت بانفصام، لا أنا فقط من بني آدم أصيب وأخطئ، عدت للعمل على إعداد الطعام.

وهكذا مر الليل رحت أتلصص من خلف الستائر على الزراعات، حسنًا لم أرَ شبح المرأة المحترقة ولا مرة واحدة، لم أرَ سوى هذا الخيال الأبيض، الذي أكاد أجزم بأنه قطعًا حيوانًا ما ربما أرنب، تذكرت غادة ترى ما ورائها، هل ستأتي مرة أخرى...

مر يومان بسلام...

انشغلت بالعمل دأبت على طلب الملفات؛ حتى حصلت عليها لمراجعتها، أجل من المفترض أن اطمئن وأركن إلى عدم وجود فساد مالي، بعدما علمت كيف حصل موظف مثلي على سكن كهذا، إنه الشبح المزعوم، لكن لا أدري لم أصبحت مرتابًا في كل شيء، لا بأس من مراجعة تلك الملفات فهذا عملي على كل حال، لست هنا عبد المأمور، وكما توقعت وجدت كل شيءٍ سليمًا من الناحية القانونية، لكن كل تلك الأموال، أتحدث هنا عن ملايين من المفترض أنها أنفقت على تحسين وصيانة سكك حديد الموت، إلا أني - وأقول رأيي كمواطن - لم أشهد أي تحسينات أو صيانة، تساوي تلك المبالغ المنهوبة قطعًا، هناك تلاعب سيكون من الصعب كشفه؛ لأن منظومة الفساد ربما ممتدة لرؤوس لا أستطيع نطق أسمائها حتي بيني وبين نفسي، فهذه

المبالغ تقول ذلك، الفاسدين من الصغار كالجرزان تكفيهم الفتات، صورت تلك المستندات، لعلمي أنها ستؤخذ مني في نفس اليوم، وأن السيد رمضان بنفسه مَن وافق وسمح لي بمراجعة تلك الملفات، لا أعرف ماذا سأفعل بتلك الصور، لكن تحسبًا يستوجب التدقيق في كل ورقة أمضيها، لست فاسدًا ولا أرغب في توريط نفسي في أي فساد، فقط أتخلص من بثينة مفرغًا رأسي لذلك العمل...

اجتمع رئيسي المباشر بي وقد طلب أن أراجع الملفات بنفسي؛ حتى يناقشني في بعض الأمور... كانت جلستنا باردة؛ فمعظم الوقت أشاد بنفسه، وبما قدمه من خدمات خرافية للمجتمع محسنًا خدمات القطارات وصيانتها بالكامل، وذلك منذ توليه منصبه، الذي بدا لي أنه عدة قرون... كاذب ورائحة الفساد تفوح منك.... سنرى!

كنت أتسلي وحدي في ظهيرة يوم مشرق، فزرعت بعض البذور التي جلبتها من بعض الفلاحين؛ لصناعة سورٍ طبيعي من اللبلاب وست الحسن، لكن عندما تبدآن بالنمو سأحتاج لبعض المعدات كي أضع لهما ما تلتفان عليه، كان الحر قد اشتد بعد عصر ذلك اليوم، فأنهيت عملي على الحديقة مبكرًا.. وما أن تحممت حتى سمعت دقاتها الخافتة، أمن المعقول أن تكون هي، ارتفعت آمالي، ثم هبطت، أو ربما شخص آخر، فتحت الباب، وكانت هي، فانفرجت أساريري، نظرت لشعري المبتل ثم وضعت عينيها في الأرض خجله...

آسفة... هل جئت في وقت غير مناسب؟!

أبدًا.. تفضلي، تلفتت حولها، لا تقلقي لحسن الحظ المنزل يقف وحده ضمن منطقة واسعة غير مأهولة فلن يراكِ أحدًا.

دخلت.

ظلت تمعن النظر في المنزل والأثاث.. كم كان الفرق شاسعًا بينها وبين ضيفتي الأخرى، التي أصبحت أخشى زيارتها.... اثنتان.. واحدة تجسيد للبراءة والأخرى للمجون.

سألتني: هل أنت سعيد هنا؟!

خرجت من شرودي وقلت كاذبًا - فحتمًا لا ينقصها مشاكلي - نعم بكل تأكيد، المنزل رائع للغاية، لكن أحيانًا أمّل من الوحدة، فلم أعتد على البقاء وحدي.

أحسدك على ذلك، كم أتمنى أن أعيش بمفردي... بالفعل أشعر بالوحدة والوحشة بين أهلي، صفاء كانت تعني لي الحياة..

لا يجب أن أنفرها؛ فتلجأ للهروب مجددًا، سأكون ذكي في طرح الأسئلة، أو أدعها أولًا ربما تحدثت من تلقاء نفسها.

أعلم أن ما حدث لأختك قاسيًا عليكِ ومؤلمًا...

لا تدري بأي قدر، لم ترَ راحة في حياتها وها هي تموت....

هنا تقطع صوتها ولم تجرؤ على النطق بكلمة واحدة فبدأت بالنحيب، بشكل أسوأ من المرة الماضية، كان لها صوتًا عاليًا كأن شيئًا بها تمزق فلم تعد قادرة على البكاء بصمت، صوتها يفتت الأكباد ويفطر القلوب.

أحضرت لها العصير، انتظرت حتى هدأت، حسنًا سأطرق الحديد وهو ساخن، جاءت لسكب ما في المآقي من دمع، لنري أهذا ينطبق على ما في قلبها أيضًا من أسرار..

قلت: حتمًا هذا صعب جدًا عليك، أتمنى أن أتفهم ولو جزءًا بسيطًا من ألمك، لكن لا أعلم بأي قدر هو، كل ما أشعر به هو أن هناك غموضًا، وأيضًا أعلم جيدًا بأنك تعلمين كل شيء، لو فقط تثقين بي، إن شئت ذلك، نظرت لي بعينين يملأها البؤس والحيرة.. ثم بدأت تحكي...

أنا ضعيفة وجبانة، كان يجب أن نموت سويًا، لكني جبنت عن قتل نفسي، فماتت صفاء وحدها..

أسقط في يدي.. هل الفتاة مجنونة أم هي تهذي من صدمة موت أختها؟!

إذن اتفقتما على الانتحار سويًا..

أجل!

ولماذا؟؟

توترت قليلًا من سؤالي، رغم بديهيته، إذا كانت وأختها اتفقتا على الانتحار، ما السبب المشترك الذي أدى لهذه النتيجة المأساوية، الأخت الكبرى متزوجة وتعيسة في زواجها، لديها الدافع وإن كنت أراه واهيًا للغاية، بينما الصغرى غير متزوجة، وتعيش مع أبيها فما دافعها؟؟، ما هذا الشيء المشترك الذي يدعوهما للانتحار معًا؟؟ الأمر يزداد تعقيدًا وغموضًا، وكأنها ترتب الأفكار بمخيلتها، كانت كما لوأنها ضيعت أفكارها في مكان ما...

عادت للصمت وكفت عن البكاء، شردت بعينيها بعيدًا.

أرجوك تحدثي وثقي بي، لن أفشي سرك أبدًا...

لست أعلم من أين أبدأ هذا الأمر، فله جذور ضاربة في جسد الزمن..

ابدئي من حيث شئتِ، كلي آذان مصغية، لكن ابدئي، ربما استطعت مساعدتك، أترغبين في تناول شيء ما.

بعض الماء، إذا سمحت.

ذهبت لإحضار الماء، يبدو أمرًا خطيرًا هذا الذي يطبق على أحبالها الصوتية، مانعًا إياها من الحديث، مجففًا ريقها، يجب أن أعرفه.

تفضلي.. الماء سيدتي الصغيرة .

لماذا تلقبني بذلك؟!

لأنك صغيرة، وتذكرينني بابنتي، لكنها أصغر منك، ربما لأنها أيضًا تتحامي بي كثيرًا، وأراك بحاجة للحماية، فقط ذلك، أيضايقك اللقب..

أبدًا لا أمانع، أتحسن معاملتها؟!

تعجبت للسؤال... نعم!! هي فلذة كبدي، وكل أبنائي، هم ثروتي الحقيقية، تهدج صوتها وارتعش وهي تقول..

حسنًا سأحكِ لكَ.. لكن هل تصدقني إن اقسمت أن ما سأقوله هو الحق...

بكل تأكيد، أعدك وأقسم بذلك، الإثارة أخذت مني كل مأخذ وأنا انتظر.

انفصل أبي وأمي بالطلاق وكنت وقتها صغيرة، ابنة سبع سنوات، وصفاء تكبرني بأربع سنوات، لم نكن ندرِ حتى معنى الكلمة - انفصال - يا لها من كلمة مقيتة بغيضة تغير كل شيء، من المفترض أن تستبدل بانهيار أو دمار.

صمتت فقلت معقبًا حتى لا ينقطع الحوار، معك كل الحق، فالأبناء يدفعون فاتورة ذلك الانهيار كاملة، ابتلعت ريقها واستطردت تقول فجأة اختفت أمي

من حياتنا، تاركةً ولاية أمرنا لأبينا الذي رفض رفضًا قاطعًا أن يأخذنا، رغم أن ذلك حقها بالشرع والقانون، إلا إنها آثرت السلم على الحرب مع أبي من أجلنا، ببساطة ودون جدال تافه تخلت عنا، ورحلت بعد أن وقعت على ذلك، ثم مسحت بعض دمعات انحدرت على وجنتيها وصمتت، وقد علمت عزمها على المتابعة وهذا جلي من سيل دموعها الذي لم يتوقف لحظة وهي تحكي، هذه الفتاة النحيلة تلقي بحمل أثنى كاهلها واقض مضجعها، وهذا واضح من الهالات التي أحاطت بعينيها الجميلتين التي سكنهما الحزن وتابعت تقول بأسً...

تولى أبي رعايتنا وكان يدللنا كثيرًا، لكن عندما بدأت صفاء بالبلوغ تغيرت كثيرًا، جعلها أبي تترك المدرسة، لأنها أصبحت امرأة جميلة جدًا، كما كان يقول وأنه يريد الحفاظ عليها حتى يأتي نصيبها، كان جسدها يثور معلنًا عن أنوثته، لكن عينيها تذبلان كأن عزيزًا لها قد مات، دائمةً الوجوم عصبية، تبكي أحيانًا، حتى أنها حاولت الهروب ذات يوم، الأغرب أنها كانت تغضب وتقوم قيامتها إذا ما وجدتني أجلس على قدمي أبي وبين أحضانه، كنت أرجع ذلك إلى الغيرة، نعم هي تغار لأنني الصغيرة، ولي الحق بمزيد من الدلال، وفي إحدى المرات انتظرت حتى خلا البيت علينا ثم أبرحتني ضربًا كي لا أعيد الكرة وأجلس على قدم أبي، وبعدها ظلت تبكي وتحتضني وتعتذر، حتى أشفقت عليها، لأنها احتوتني بعد أمنا ولم تقصر معي ـ رغم كونها طفلة كذلك ـ لكنها كانت الكبرى.

صمتت قليلًا... وأنا استمع بفراغ صبر... رحت أحثها.. هذا طبيعي، نظرت إليَّ وكأنها لا تراني... نعم كنت الصغرى لحسن الحظ، فأنصعت لأمرها، لم أدرك ما كان يحدث إلا بعدما كبرت وأدركت ما كان يحدث فعلًا وقد شاهدت بعيني، تواجهت معها وعنفتها، كيف تصبر على أمر كهذا، هذا بشع، بل مقرف، ابنة وأبيها.....

ثم ران صمت ثقيل.. الآن تنبهت إلى سقوط فكي السفلي من الدهشة، بل الصدمة هي التعبير الأدق، وقد أدركت إلى ما رمت إليه، من كل ما قالت سلفًا ولم يكن عندي ما أقول، تمالكت نفسي ولم تمنحني فرصة لأتلعثم واتخبط في إيجاد ما أقول، فتابعت

ظللت لفترة أعاملها أسوأ معاملة، حتى سمعت بأذني، أبي يهددها بي، نعم بي أنا لتنصاع لرغباته القذرة الشاذة، إن لم تكوني أنتِ، تعلمين جيدًا مَن سأحضر مكانك، ارتعدت وتصببت عرقًا، لا لا أتخيل نفسي مكانها، جاءت إلى الباب لتوصده وتفاجأت بي، وقعت عيني في عينيها، كنت أبكي وأبحث في عمق عينيها عنها، ولم أجد سوى الخواء وبؤس وشقاء العالم مجتمعين هناك، وأغلقت الباب في وجهي.

انخرطت في البكاء مجددًا، يا الله، لا أصدق ذلك، حتمًا هناك لبس ما، شيء خاطئ، قلت أحثها وقد توقفت عن البكاء وشردت.. وماذا بعد؟ أدارت وجهها لي وكأنها تفاجأت بوجودي

زوجها أبي عندما أكملت السابعة عشرة، ومن ثم تزوج هو الآخر، لكن علاقته بها لم تنقطع كما لو أن وظيفته في الحياة هي تعذيبها، أعتقد أن روحها ماتت، وأصبحت جثة خالية من الروح..

عادت من أفكارها ونظرت لي قائلة أتصدقني...

كنت مذهولًا مما سمعت، صمت قليلًا استجمع أفكاري....

أصدقك، لكن مؤكد هو ليس بأبٍ، الأب يحمي ويدافع ويصون، لا يهتك عرض ابنته، هذه جريمة بشعة، لا مؤكد ليس والدك، كدت أصاب بالجنون مما علمت... يجب أن تتحققي من تلك المعلومة.

هل سيطيب خاطرك إن كان ليس والدنا، وهل ذلك سيهون جريمته، سيدي الفاضل، أنا جامعية أعرف تمامًا معنى جملة تحاليل إثبات البنوة، ما خطر لك خطر لي فقمت بعمل اللازم، وتأكدت بنفسي، هو والدنا للأسف....

أدركت أمرًا وأنا أفكر في كل ما قالت.. لحظة قلت أنه زوجها وتزوج، فلماذا استمرت تلك العلاقة المشينة، لماذا لم تنقطع؟!!

ولما لا تستمر، وقد مات ضميره والمعصية أكلت قلبه؛ فأصبح مكانه قطعة من اللحم الفاسد المتعفن،

كلماتها كانت كما السياط تجلدني، فتابعت أقول...

ثم ضاقت ذرعًا بكل هذا وانتحرت.

ليس بتلك الطريقة، لقد شاهدتهما زوجته، وثارت عليها، لم تخبره أنها علمت، انتظرت حتى حصلت على تسجيل بالصوت والصورة؛ ثم راحت تهدد صفاء بأنها سترسله لزوجها ولكل أهل القرية، هكذا أصبحت صفاء تحت رحمتهما، الكل يجذبها من كل جانب؛ فقررت الانتحار حتى لا يُعيَّر أبناؤها بها، ولكنها أمنت أبناءها، فهم يتربون في بيت أبيهم بأمان، لم يظل هناك من تخشى عليه إلا..

صمتت فقلت بدلًا منها أنتِ، ولذلك أقنعتك بالانتحار معها، لكنك جبنت في أخر لحظة.

نعم أصابني الجبن والعجز، عن قتل نفسي معها حاولت منعها حتى أنا نفسي هددتها بفضح كل شيء وليكن ما يكون، أظهرت اقتناعًا زائفًا، ثم فوجئت بتلك الفاجعة، ليتني مت معها ولم أبقى في هذا العالم القذر...

غابت مجددًا في بكاء موجع هيستيري فقلت أواسيها: لا تقولي ذلك، هذا خطأ كبير، أختك ظلمت وتعرضت لأسوأ أمر يمكن أن تتعرض له فتاة، لم يكن بيدها شيء، لكن أين والدتك من كل تلك الأحداث الدامية لماذا لم تخبرنها بالأمر...

عندما حاولت صفاء الهرب من البيت، اتصل والدي بها وأخبرها، وعندما وصلت كان أبي قد وجد صفاء، وكان نصيبها ضربًا مبرحًا أقعدها لأيام، انعزلت أنا وصفاء بأمي نحدثها بكل شيء كأملٍ أخيرٍ لنا وكأننا وجدنا طوق النجاة، أتعرف ماذا فعلت؟!

ماذا؟!

لطمت أختي على وجهها ونعتتها بالكاذبة الفاجرة..

لن أنسى تلك الليلة، كيف أن الألم كان يتموج على وجه صفاء، تلك الصفعة لم تكن على وجهها، كانت على قلبها، فلم يتحمل ومات ما تبقى منها فلا بصيص أمل لها ولا نجاة.

أي شقاءٍ عانته هذه المسكينة، لا أتصور حتى مقداره، انتهاك ومهانة... ولا أحد يحنو أو يحتوي.

سيدي.. لا أب لدينا ولا أم، لم يكن هناك غيري وغيرها، والآن أصبحت وحدي تمامًا

ألم يحزن عليها.. اقصد.

لا تقل شيئًا، مازلت لا تصدق، هو متجرد من أي مشاعر إنسانية، حتى أشرس الحيوانات لديها مشاعر أكثر منه..

همَّت بالانصراف، بدا على وجهها الغضب مما قلت، فبادرت معتذرًا.. لم اقصد، فقط أتمنى أن يكون قد عاد من هذا الغى بعدما فقد فلذة كبده، جزء مني يريد أن يصدق بوجود بعضًا من المشاعر لديه، إذ أنني لا أتصور أنك تعيشين مع ذلك الوحش.

لا تقلق لا أخت صغرى لي كي يهددني بها، أقاومه وإن مت دون ذلك الأمر لا اهتم أبدًا.

إذن هو يحاول، لا أحتمل التفكير في ذلك أبدًا، يجب أن يتم ردعه.

يحاول لكن لن أرضخ، أصبحت أخاف أن اتناول أي طعام في البيت، فإما أن زوجة أبي ستضع به السم لتتخلص مني؛ فأنا حجر العثرة الوحيد أمامها لتهيمن على أبي وكل ما يملك، أو إن أبي سيضع لي منومًا، لينال مآربه

كيف لم ألحظ ذلك الفتاة هزيلة وشاحبة، لو عرضت عليها الطعام الآن ستأبى، فلديها عزة نفس وشرف سأنتظر قليلًا، فبادرت قائلًا كيف إذن تدبرين أمرك؟!

بالنذر القليل مما أمنح للذهاب للجامعة والعودة، ولكن لا أحصل على ما يكفي لأبتعد عن المنزل، لكن سأصمد حتى انتهى من دراستي، فأنا في السنة النهائية من كلية التجارة.

بدت يائسة رغم حديثها، فالأمل مازال بعيدًا، والوضع حرج، هي بحاجة لإنقاذ فوري، كما وهي تجوع نفسها وقد أصبحت واقعة تحت الضغط النفسي وهلاوس الصدمة، وعدم الثقة في أقرب الناس إليها، من يلومها كيف ستصمد، يجب أن أساعدها؛ قلت اطمئنها: سوف أساعدك.

كيف؟!

في البداية تعال إلى المطبخ فقد جعت، وأنا مريض لا أستطيع تحمل الجوع وإلا أصبت بغيبوبة، سنعد الطعام ونتحدث.

(القصة حقيقية وهناك المئات مثلها، ولا حلول جذرية في مجتمع يدفن رأسه العنيد في الرمال مدعيًا أن كل شيء على ما يرام)...

دخلنا معًا إلى المطبخ، وطلبت مني أن تساعد في إعداد الطعام، رفضت بشدة...

فقط اجلسي إلى الطاولة وأنا سأعد كل شيء؛ فأنت ضيفتي اليوم، الطعام مجمد ومكتمل الطهو، لن يستغرق سوى دقائق، ليس بالشيء العظيم، لكنه يفي بالغرض.

صنعت كمية تكفي وتزيد للتأكد أنها نالت كفايتها.. وجدتها تسأل بشك أخبرني هل بإمكانك مساعدتي حقًا، أم إنك لا تستطيع، وتخبرني بذلك لتهدئني وتهون علي.

نعم عزيزتي! استطيع بكل تأكيد مساعدتك، فأنا أعرف الكثير في الحياة وأعرف الأشخاص المناسبين لكل عمل، تناولي طعامك أولًا ولا تشغلي بالك بأي شيء، هناك منظمات تعني بتلك الأمور.

هنا في مصر!

نعم هنا، للأسف تمويلها من الخارج، لكن من يهتم بذلك، المهم أنها تقوم بحل تلك المعضلات، وتهتم بالانتهاكات التي تحدث بحق النساء وتأويهم، فقط اصبري لأقوم ببعض الاتصالات وأسأل ما المطلوب بالضبط، كي يتولوا رعايتك.

بدت مندهشة... فقلت اطمئنها: عزيزتي إنهم يجلسون دون عمل، منفقين أموال الدعم والتمويل على السيمون والكافيار، ويقتفون أي أثر لرائحة حالة مثل حالتك، حتى يثبتون جديتهم في عملهم فلا يقطع عنهم التمويل.

هيا نتناول الطعام، وإلا سقطت مغشيًا عليَّ، تحمست ولمعت عيناها، وتناولت الطعام بشهية طفل في مرحلة البلوغ...

كنت أنظر إليها خلسة حتى لا أتسبب لها بالإحراج... شعرت مرة أخرى بإنسانيتي التي ظننت أنها طمرت تحت أقذار المعصية، هذه الفتاة الضعيفة التي تحارب من أجل البقاء، نظيفة عفيفة اتصلت مع روحي لتعيد إليَّ جزءًا مني أكاد أفقده، وهو على وشك أن يلفظ أخر أنفاسه.

الحمد الله شبعت وعلى العودة للبيت فقد تأخرت كثيرًا..

صحيح، ماذا تخبرين والدك كي تأتين إلى هنا!

يعلم أني آتي لمكان موت اختي، فقد مشي خلفي عدة مرات، وتأكد من ذلك قبل أن تجيء للبلدة، هو يعلم أنني لا أبرح الزراعات.

وماذا تفعلين هناك، إن ذلك خطر جدًا.

فقط أجلس هناك.

لا تفعلي ذلك مرة أخرى اتفقنا، ستأتي إلى هنا إلى أن نحل تلك المشكلة.

أجل!

جيد جدًا، أريد فقط الاطمئنان عليك، انتبهي جيدًا لنفسك، واصمدي وستأتي الحلول تساق إلينا كما الغيث

حسنًا.. سأنصرف، شكرًا على كل شيء.

عفوًا، انتظري سأكتب لك رقم هاتفي، تعلمين تستطيعين الاتصال في أي وقت، والمجيء أيضًا رحلت وعلى وجهها ابتسامة أمل ورضًا، حقًا لن أهنأ بالًا حتى تصبحين بأمان... حاولت الاتصال بصديقي الذي سيتولى شأن غادة، وكنت قد تعرفت عليه في إحدى المقاهي العريقة بوسط القاهرة، التي يتجمع عليها الأدباء والمثقفين، وقد علمت منه ماذا تقدم المؤسسة من دعم للنساء المضطهدات، لكنه للأسف لم يرد، ظللت أحاول بلا فائدة، حتى أصابني الحنق والإحباط، ماذا إن غير رقم هاتفه، أو سافر للخارج، يا رب، لا تعاقبها بذنبي ألا تريد مسامحتي بتيسير فعل هذا الأمر، ألا تريد تطهيري من الذنب.. سأقلع ولن أعود أبدًا، أعلم أنك أرسلت لي رحمتك مجسدة في تلك الفتاة، هي تحتاج لي لكن ليس بقدر حاجتي إليها، حسنًا... وإن كنت لا تسامحني لكن دعني أساعدها.. لن أيأس حتى أفعل وإن اضطررت أن أقوم بذلك بنفسي، دون عون ذلك الصديق.. أعلم أنك تختبر إنسانيتي ورحمتي.

شعرت باختناق، فذهبت للخارج، ورغم أنها ليلة صيفية حارة جدًا، إلا أن الأمطار هطلت، فالطقس الحار نادرًا هنا وغالبًا ما يكون عارضًا، ودائمًا ما ينتهي بسقوط بالأمطار، وقفت تحت المطر، لم أكن خائفًا من شبح المرأة المحترقة، غير عابئ لو حدقت بعيني مباشرة لربما اعتذرت منها عن قذارة هذا العالم.

نظرت للسماء كثيرًا، كل شيء لم يبدُ كما كان من قبل، لا شيء مألوفًا، أو كما اعتدته ولا يقترب حتى من ذلك، ها هي السماء بنجومها والقمر المتواري خلف الغيوم، والأرض المغرقة بماء المطر، كل شيء تغير وإلى الأبد، أو بمعنى أدق تغيرت نظرتي لكل شيء، وماذا افعل أنا، إن العالم قذر جدًا.. نعم، لكنني أزيد قذارته، نعم هذا ما أفعل، أنا لا أقل سوءًا عن أي

شخص قذر في هذا العالم المتداعي، أنا خائن عابث فاسد، ثم عدت للداخل وتحدثت مع ليلي..

جاءني صوتها الباكي الحبيب..

ليلى كم افتقدك، هل اشتقت لي!

نعم يا عزيزي كثيرًا!.. الأطفال بخير وأمي أيضًا، فماذا عنكَ؟!

آه يا ليلى كم أحتاج وجودك ودعمك...

محمد! محمد، ماذا بك؟!

لا تقلقي بشأني أنا بخير، انتبهي للجميع أعلم أنك امرأة قوية، وأقدر كل ما تقومين به من جهد، وأعدك أنني سأعوض لكِ كل ما تبذلينه حين تأتين، كم هي بعيدة الأيام!

محمد، أخبرني ماذا بك؟! ماذا حدث؟؟

لا شيء، فقط اشتاق للجميع، المنزل خاوٍ وموحش للغاية.

لا تقلقني عليك، يكفيني قلقي على الجميع هنا.

ليلي! إنه فقط بعض الحنين إليكم، قلت لألهيها، فلماذا من الأصل أزعجها هكذا...

كيف حال أمي؟

احذر.... ماذا..... هي مستيقظة وترغب في التحدث إليك.

لم أكن تحدثت معها منذ أتيت هنا سوى مرة واحدة، فهي تنام كثيرًا لكبر سنها، فسمعتها تنادي اسمي فاختنقت بالبكاء، نادتني مجددًا... محمد أين ذهبت؟!

أمي...كيف حالك؟! أنا هنا أمي.. عذرًا إنها الخطوط تتقطع أحيانًا.

ماذا بك؟!

يا الله... اهتاجت مشاعري واختنقت أكثر، كنت على وشك أن أبكي كطفل صغير، لكن تمكنت بصعوبة من التماسك، لا نكبر أبدًا وأمهاتنا أحياء يرزقن.

فبادرت بصوت ملتاع مفعم بالقلق.. هل أنت بخير يا بني!

أتدعين لي!

ردت بصوت محمل بالعطف والحنان: في كل آذان وصلاة.

إذن أنا في خير حال، وليس من داعي للقلق.

أغلقت الهاتف بعد أن امتلأت أذني بالدعوات الصادقة، التي أراحت قلبي وأزاحت بعض أحمالي، وذهبت للنوم عازمًا على أمرٍ ما...

كنت متفائلًا في الصباح، بدا الطقس صافيًا ورائعًا، فكرت في الأمر جيدًا، سأتصل مرة أخرى على عمر وإن لم يرد سآخذ على عاتقي مسئولية غادة...

كما وقد قررت أن أبتعد عن تلك المرأة وأقلع عن كل ذنوبي، وأن أكف عيني عن النظرة الحرام، فما أوقعني إلا استهتاري بتلك الصغائر، التي ظننت أنها عادية ولا بأس بها، بل كنت أهنيء نفسي باقتصاري على سفاسف تلك الأمور، وبأنها لا تعد خيانة، فماذا أكون أنا في معشر الخائنين، فما أفعله

يُعد لا شيء.. هكذا كنت أرى نفسي، أنا الملاك الفاسد، لكن كيف اتخلص من بثينة..

أعلم الآن جيدًا مقدار الشر الكامن المتخفي وراء مظهرها الجيد المبهر، لكنها فقط القشرة التي تغطي الفساد والشر، مشكلتي الآن، هي كيف أتخلص منها دون فضائح، أعلم أنها لن تبتعد بسهولة، لقد علقت معها، وقد قالت ذلك بنفسها، أعجبتها وعزمت على الحصول علي بأي وسيلة، وقد كان لها ما أرادت، فهل سترحل بهدوء بمجرد أن اطلب منها أن تذهب للجحيم، وألا تعود مرة ثانية.. لا أعتقد حقًا..

لماذا لا استعير بعضًا من الكيد الأنثوي، زوجة والد غادة صورت زوجها وابنته، فلما لا أفعل، لكن كيف؛ وهي تأتي فجأة ودون انذار مسبق، أعياني التفكير في ذلك الأمر، أخذت إجازة عارضة لأقيم الوضع وأفكر به جيدًا، حتمًا هناك حل، هي لم تأتِ منذ ثلاثة أيام، وأعتقد أنها ستأتي قريبا جدًا، أعلم جيدًا ماذا سأفعل كي أتخلص منها، أما الآن علي إعادة محاولة

الاتصال بعمر لحل مشكلة غادة، فلها عندي كل الأولوية، فوضعها حرج لا يقبل الانتظار.

اخيرًا وبعد عدة محاولات رد عمر.. تنفست الصعداء وأنا أسمعه على الجهة الأخرى للهاتف

أهلًا صديقي! كيف حالك؟!

بخير.. وأنت هل تبلي حسنًا في تلك البلدة!

اسمعني جيدًا يا عمر، وعندما بدا على صوتي الجدية أعارني انتباهه بالكامل...

ماذا هناك! أخبرني... أهناك خطب ما!

فأخبرته بكل شيء، ولكنه صدمني برده..

كيف ذلك!

اسمعني يا محمد، إن ما قلته ليس له أي سند قانوني أو حتى شهود، يؤيدون ادعاءات الفتاة، فعليًا لم يقع عليها أي اعتداء جسدي مثلما فهمت منك، ستكون شهادتها أمام شهادة أبيها، مجرد ادعاءات، فأختها التي وقع عليها بالفعل أكثر ضررًا قد ماتت، وما من أدلة تفيد تلك القضية، اعتذر إليك، كنت أتمنى أن أساعدك.

ثارت ثائرتي ولم أدرِ ما قلت متهمًا صديقي بالمتشدق بشعارات كاذبة، حتى وصلت لنعت تلك المنظمة بأن أهدافها مشبوهة...

هل ننتظر حتى ينتهك الرجل عرض الفتاة أو أن تنتحر، أو أن تحمل سفاحًا ليكون لديها أدلة كافية لإدانة ذلك النذل، أي نوع من المنظمات الحقوقية تلك.

أعذرك وأعلم جيدًا بأن ما قلت أحبطك، لكن ليت الأمر كان لي للبت فيه، النقود التي تنفق على أي من الضحايا ليست بقليلة؛ لذلك تود المنظمة الحقوقية أن توظف تلك الأموال في مكانها، وأن تصل لمن يستحق، وحتى هناك في الخارج، تقف المنظمات الحقوقية عاجزة أمام الأدلة والإثباتات في بعض الحالات.

القضية يجب أن تكون على قدر من القوة لضمان ردع الجاني ومحاسبته، عندها يأخذ القانون مجراه، وكل ذلك يدار على جانبٍ، بينما المنظمة تساعد هؤلاء النسوة في الوقوف على أقدامهن، فتوفر لهن السكن

والعمل والمصروفات الدراسية، كما يتم تأهيلهن نفسيًا بتقديم المعالجة اللازمة حتى يتجاوزن ما مررن به من انتهاكات، وتتابعهن مدى الحياة إن لزم ذلك.

فهمت

أنت لا تفهم شيئًا يا محمد، لقد رأيت الكثير، إن عدم حياكة قضية جيدة حول الرجل يعرض الفتاة لخطر أكبر، نكون وقتها كمن أطلق سراح حيوان مفترس جائع وثائر..

إذن نتركها لتدبر أحوالها بنفسها فتجوع نفسها؛ حتى تنهار بدنيًا أو تستسلم وينتهك عرضها، ثم يسعنا وقتها المساعدة، أغلقت الهاتف دون تحية فما سمعته أمرًا فاضحًا ومعيبًا، فتلك المؤسسات والمنظمات لا تدافع عن هؤلاء النسوة بقدر ما ترغب في تسليط الضوء على عيوبنا وفضائحنا.

يا الغباء، ماذا أفعل، ماذا أقول لها وعدتها أن أساعدها، الفتاة أصبح عندها أمل وتطلع، شعرت بصدمة وإحباط، فلا شيء يسير مثلما أردت.

أتت بثينة كما توقعت ودون ميعاد كعادتها، لكن ما أن شاهدتها ادعيت الارتباك، تنفيذًا لخطتي.

ماذا هناك! لماذا أنت منزعج من مجيئي! ألا تفتقدني! كانت عيناها تنظر إلى وقد سبلت جفنيها بدلال وفتنة.

أنت شرير، وأنا سألقنك درسًا لن تنساه.

كانت على وشك تقبيلي، فأبعدتها.

لا لن أعطي للشيطان وللهوي الفرصة أبدًا...

فبدأت أنفذ ما عزمت عليه.

الأمر ليس كذلك، بثينة! هناك شخص قادم الآن..

من؟ أهي امرأة؟ انطق تحدث!

كما توقعت لقد بدأت تشعر تجاهي بنزعة التملك، وها هي تزداد طلبًا والتصاقًا بي.

الأمر ليس كذلك، الأمر وما فيه هو أنني بدأت أشعر بوجودها تطوف حول المكان ولا تهدأ أبدًا، وتصدر أصواتًا مخيفةً وتصرخ، لا تجعلها تأتي إلى هنا.

تغير لون وجهها وامتقع، كما توقعت نال منها الخوف فبادرت تقول بصوتٍ مهزوزٍ، وتتلفت حولها

مَن؟ مَن تقصد!

هي نفسها، مَن قدمتِ أول مرة لتحذريني من وجودها.

أنت تمزح حتمًا.

لا أمزح أبدًا حتى إن محسن رآها.

أسأليه إن شئتِ.

ولكن ما علاقة الشخص القادم بكل هذا؟

حسنًا بثينة أنتِ لست غبية، وانا لا وقت عندي للشرح، إنه شيخ من القرية المجاورة سيأتي لرقية المكان حتى تنصرف عني، فأرجو أن ترحلي حالًا، وإن أردت القدوم مرة أخرى يكون من الأفضل أن تتصلي مسبقًا وتعلميني..

لـم أدع لهـا مجـالًا فأوقفتهـا مذهولـةً ومرتعبـةً مـن الخـوف؛ وأوصـلتها للخارج متخلصًا منها، هنأت نفسي على ذكائي، واثق أنها ستسأل محسن عن حقيقة ما رأى، وسيؤكد ما قلت وهناك احتمالان: إما سيمنعها الخوف من أن تستمر في علاقتها معي أو أنها ستعود يومًا ما.

أما من أين أعلم بأنها تعرف محسن، حسنًا أنا متأكد من أنها إحدى نساء هذا المنزل القدامى، وهذا ما تأكدت منه عندما لم تسألني من يكون محسن، فهي ليست ذكية لهذه الدرجة؛ مؤكدة لي كم أنني تورطت وعلقت بفخ الثعلب هذا.

تمت خطتي أو الجزء الأول منها بنجاح، إذا خافت ولم تعد مرة ثانية، سيكون حظها جيد أما إذا عادت حسبما أعتقد وأتوقع، ستتصل قبل أن تأتي وسأكون جاهزًا لأسجل لها فيلم بطولة، وأمنحها دور المرأة اللعوب الشريرة، التي تحاول إغواء رجل برئ متزوج، وهو أنا، فقط يجب أن أدير الحوار بذكاء...

كل يوم اكتشف في نفسي حنكة في الشر، وحبكًا للحيل والمؤامرات بمكر ودهاء، الأمر الذي يدهشني للغاية ويخيفني أحيانًا من نفسي، على الأقل هذا سيمنحني بعض الوقت لأرى ماذا سأفعل مع غادة وكيف أحل مشكلتها، انشغلت بتجهيز الهاتف، في حال إذا عادت بثينة وهو مشحون جيدًا وبه مساحة كبيرة خالية.

لكن ما شغلني حقًا هو أمر غادة، هل أخبرها بما جرى، أو انتظر لبعض الوقت حتى لا أسلبها تلك السعادة، وإن كنت أعلم جيدًا أنها مؤقتة، وآجلا أو عاجلًا سنواجه الحقيقة سويًا.. لكني أبدًا لن أيأس ولن أتركها، وهذا ما يجب أن تعلمه جيدًا وتصدقه؛ ليطمئن قلبها وتناضل ولا تستسلم أبدًا، فأنا أدعمها..

تسوقت بعض الأغراض بنفسي، فلا أريد أي تعامل مع الكائن عبد المأمور، محسن أفندي

أحضرت كل شيء طالته يدي، هذا لأنني لا أعلم ماذا تحب غادة، وبالفعل ذات يوم أتت، وأول سؤال بادرتني به كان... هل طلبت ذلك الشخص!.. صديقك.. ما اسمه؟

اسمه عمر.

حسنًا.. ماذا قال لك؟

صمتُ.. كنت أنوي ألا أخبرها بشيء، لكن الآن وأنا أنظر لعينيها المتلهفة لم أستطع الكذب، رغم أنني كنت بارعًا في الكذب، الأمر معقدًا بعض الشيء، وكأنني أطفأت لمعان عينيها فغام وجهها بيأس مميت؛ فرحلت مسرعة وكأن الشياطين تجري خلفها، لكن أعلم أين سأجدها...

هائمة على وجهها والدمع الحار يملأ عينيها عاودها الحزن مجددًا، ألا ينتهي ذلك الكابوس، أليس لذلك الظلام من صبح ينحره، فيأتي النهار مضيئًا، ألا تستيقظ الذبيحة وتنطق بالحقيقة.

ذهبت على آثرها، كنت أعتقد أنني أعرف المكان الذي سأجدها فيه، لكني لم أجدها، توغلت قليلًا في الزراعات، حتى أصابني القلق، وشيء آخر انتابني كذلك؛ فقد كان الهواء في تلك البقعة بالذات ثقيلًا جدًا حتى كدت اختنق، أحسست أن هناك من يراقبني، ناديت، غادة.. غادة.. عدة مرات ولا أحد يرد، فناديت، صفاء، فارتد إلى صوتي يتذبذب ولا أحد يرد، وبخت نفسي هل جننت، ماذا تظن نفسك فاعلًا أيها الأحمق، عد من حيث أتيت وإلا ضعت في تلك المتاهات الزراعية، التي لا يجب أن يخوض أغوارها إلا الفلاح المخضرم .

تعقلت وعدت لجادة الصواب، لكن أين ذهبت غادة، القلق ينتابني..

عدت للمنزل، فوجدتها هناك، يجب أن أكون حازمًا معها.. وذلك سيجعلها تشعر بأن هناك مَن يهتم لأمرها حقًا ويتولى مسئوليتها... أتعرفين بأي قدر أزعجني ذهابك، فقد ذهبت للبحث عنك وكنت قلقًا..

آسفة! لقد تصرفت كما يتصرف الأطفال.

رق قلبي لها، إنها بالفعل طفلة؛ ويحق لها أن تتصرف برعونة، ويجب على الجميع تحملها حتى تتخطى كل ما ألم بها..

شعرت باللين في موقفي فاهتاجت مشاعرها وظلت تبكي، كم وددت لو أهدهدها كما أفعل مع أبنائي، لكن لا أقدر حتى لا تتحسس أكثر وتفهم الأمر بشكل خاطئ، فمن يلومها على ذلك، أدخلتها، وبحزم قلت هيا اغسلي وجهك ريثما أجهز الطعام، همت بالحديث؛ فبادرت قائلًا:

دون كلمة واحدة سنتحدث مطولًا بعد أن تمتلئ بطوننا، تعرفين أنا رجل مريض، وهذا أمر، فلا تناقشيه، رحلت وهي تتمتم، بدأت أشك في مرضك هذا!

ماذا قلت؟ عفوًا لم أسمع!

لا شيء! سأفعل.

جلسنا نتناول الشاي، قصصت عليها كل ما قاله عمر..

حسنًا.. ما رأيك؟!

كلامه منطقي لا شيء يعيبه..

اندهشت لردة فعلها!

لا تتفاجأ هكذا! لو فرضنا أنني توجهت للقسم لعمل محضر أتهم فيه أبي، وأنا خالية الوفاض دونما دليل أتراهم يقبلون أن يحيكون قضية ضده!.. قطعًا لا، وذلك لانعدام الأدلة التي تثبت جرمه.

حقًا.. أنتِ أكثر ذكاء مني، لقد كنت عصبي لأن الأمر لا يحتمل التأخير، وهذا يزيد الأمر تعقيدًا، لا منطق في تلك القوانين، أيجب أن تقع الفأس في الرأس والدماء تسيل لتتحرك الشرطة والقضاء، تبًا لكل ذلك ولتلك القوانين الغير عادلة، الآن نريد دليل فماذا سنفعل، فكري..

وسأفكر....

انتظري!

ماذا؟!

ألم تخبريني بأن زوجة والدك معها تسجيل مصور لأختك وهذا الوحش، أتراها تخلصت منه أم أنه مازال موجودًا!

لن تتخلص منه متأكدة من ذلك، لكن ما علاقته، مهلًا! أنت تقصد أن نستخدمه.

نعم! ولمَ لا؟!

أولًا ماتت أختي منتحرة حتى لا تفضح وأبنائها، فآتي أنا أختها الوحيدة وأفضحها.

ماتت أختك لتتستر على فضيحة لم تكن لتعيبها؛ لأنها ضحية فالتصقت بها فضائح أخرى، أعابتها وألصقت العار بسمعتها؛ فأضرت بزوجها وأبنائها،

فالكل ينعتها ويرميها بالفسق والفجور، وبأنها كانت على علاقات متعددة بمن كانوا يرتادون هذا المكان، ألا يخبرك ذلك بشيء، ما فعلته أختك كان خطأ فادحًا، كبدها حياتها وآخرتها كذلك... إن ما سنفعله سيبرئ ساحتها، فلا يعود أحد لتشويه سيرتها بالباطل.

حدقت غادة بوجهي مطولًا كانت كما الغافل الذي يصحو فجأة، بانت الصدمة على وجهها مع كل كلمة أقولها..

أعتذر ولكنها الحقيقة، أعلم أن الناس لا ترحم الضحايا من النساء، لكن تظل بنظرهم ضحية وهذا أفضل من ذكرها كعاهرة، اعتذر عن اللفظ..

أنت محق في كل كلمة نحن النساء نتربى بشكل مغلق، ونتعود على محدودية التفكير، العقول تقفل دون معتقدات تم وضعها هناك منذ الصغر؛ حتى أصبحت تلك المعتقدات كما الصدأ يأكل الأدمغة الصغيرة ويغطيها؛ فتزداد صغرًا ومع الزمن تتعطل وتتوقف عن التفكير والتدبر ولو للحظة، دائمًا في مجتمعاتنا يكون العار عار الأنثى، ولا شيء يعيب الرجل، أنظر إليَّ أدرس في الجامعة ومازالت جاهلة بأبسط حقوقي، لو كنت قابلتك من قبل، لكانت صفاء حية بيننا..

غام وجهها بالحزن، وأحسست بأن لديها شعورًا بتأنيب الضمير...

أنتِ تُحملين نفسك فوق طاقتها، قلتها بنفسك، يتم تدجين الإناث على العيب والحرام لكن بشكل خاطئ، بما يناسب العادات والتقاليد البالية وليس بحسب ما يتفق مع الشرع والدين، الفتاة لا تفهم مالها وما عليها فتترعرع على السمع والطاعة، فكفي عن لوم نفسك، ما حدث ليس ذنبك.

ألوم نفسي كثيرًا، صفاء لم تحصل على قسط وافر من التعليم، أما أنا.. فمازلت أتشدق بأنني فتاة جامعية، لكن هناك مشكلة، كيف أحضر ذلك التسجيل منها!

قطعًا لن تذهبي وتطلبيه منها بأدب، هنا انفرجت أساريرها وأطلقت سراح ابتسامة رائعة، أضاءت وجهها الفتي..

إن ذلك يليق بكِ يا غادة! أنتِ جميلة وأنتِ تبتسمين، لكن سيكون عليك البحث بجدية عن هذا التسجيل، وأنا سأتكلم مع عمر، وأعتذر منه وأرى إن كان سيؤخذ بذلك التسجيل كدليل، أم لا!

اتمنى ذلك، أعدك سأبحث جيدًا وإن اضطررت أن أقلب البيت شبرًا شبرًا..

حسنًا لكن انتبهي ولا تثيري الشكوك حولك!

لا تقلق سأكون حذرة، سأرحل الآن.. شكرًا..

ليس الآن!

ماذا؟!

اشكريني لاحقًا، عندما ينتهي كل شيء على خير ما يرام.

مر يومان ولم تأتِ غادة أو تتصل..

يبدو أنها مازالت تبحث، ماذا إن لم تجد هذا التسجيل، لقد عقدنا عليه الآمال.

كنت قد اتصلت بعمر، واعتذرت منه، أعلم جيدًا مدى رقي أخلاقه؛ فهو من أسرة عريقة راقية كما أن تلك المنظمات الحقوقية تختار جيدًا مَن يمثلها، ممن لديهم إيمان بتوجهات تلك المنظمات وأهدافها، لكن الغضب أعمى قلبي،

سألته في أمر التسجيل، هل تأخذ الجهات المعنية به كدليل قاطع للإدانة أم ماذا!

حسنًا محمد؛ هو كافٍ لإخراج الفتاة من المنزل وإبعادها عن ذلك المجرم، فالنيابة ستحقق وسيصل الأمر للقضاء وأنا على يقين بأن الإعلام سيهتم جدًا بهذه القضية، ستكون قضية رأي عام..

اعتذر منك مرة ثانية عمر، لا أعرف كيف تحدثت هكذا إليك، كنت جائرًا بحقك، لكني شعرت بالعجز وهذا الإحساس أعمى قلبي.

لا بأس، أقدر شعورك، فأنا كنت في مكانك عندما بدأت العمل في هذا المجال، وقد نزلت من برجي العاجي ورأيت واقع الحياة الحقيقية، واصطدمت بوجهها القبيح، كنت أثور خصوصًا وأنا أرى القانون يحمي الجناة ويتخلى عن الضحايا.

عمر أخبرني بأمر، إن كنا تخلينا عن التشريعات الحقة ولم نعمل بوحي المنهج الإلهي، لماذا نضع قوانين! لا عفوًا هي ليست قوانين هي معوقات وعراقيل؛ تكبل الضعفاء وتمنعهم من أخذ حقوقهم..

سؤال يجيب عن نفسه يا صديقي، لأن تلك المعوقات تحمي أصحاب النفوذ، ولم تكن بأي حال من الأحوال توضع لحماية الضعفاء، ولكن اطمئن فنحن بصدد تعيين بعض الأبالسة للتلاعب ولي عنق تلك القوانين، فلا سبيل لأخذ حقوق الضعفاء إلا بتلك الطريقة.

هذا أفضل من لا شيء، أتمنى أن يحل السلام والعدل على الأرض..

ضحك عمر مقهقها، حسنا يا رفيق أنتظر منك اتصال لتخبرني ماذا فعلتما، لكني حقًا مندهش للتغيير الذي حدث لك وهذه النقلة الأخلاقية، التي جعلتك تفتح عينيك وقلبك وترى الدنيا بمنظورها الحق، وتعلم أنها ليست

للعبث، فهي خطيرة جدًا للعبث معها، وسعيد وأنا أرى فيك هذا التحول، ربما عينتك معنا لكن ماذا دهاك حقًا.

أجبته... ببساطة هو أمر مجهول، بإذن الله وبمجرد ما أن يأتيني خبرًا من غادة سأهاتفك..

أغلقت الهاتف وعدت من حيث بدأت، غادة... ترى ماذا حدث معها، لماذا لم تتحدث إلى ولو حتى من باب الاطمئنان..

صدح الهاتف يمزق سكون أفكاري يعيدني من شرودي، انطلقت إليه ربما هي، فلم تكن، وكانت بثينة، جيد جدًا ليبدأ القسم الثاني من الخطة؛ فأنا ضجر وأشعر بالشر يسري في أوصالي كما المادة المخدرة، وهذه البثينة لا تعرف مع مَن تورطت...

رددت عليها بحنق وفراغ صبر، حقًا هذا ليس وقتها؛ فلا وقت لدى!

ماذا تريدين بثينة؟ تحدثي سريعًا

ما هذه المعاملة، كيف الحال إذن؟!

بشأن ماذا؟

تعرف! هل انصرفت؟!

تعرفين جيدًا كيف تسير تلك الأمور، لن تنصرف من أول مرة.

هل سيأتي هذا الرجل الليلة، ثم لماذا ترسل في طلب رجل من خارج المنطقة، لو كنت أخبرتني لكنت....

اصمتي بثينة، أحضرت الرجل من خارج المنطقة؛ فلا أريد أن يعلم أحد ما، فأفقد مكانتي خصوصًا أمام موظفي المؤسسة، وهو لن يأتي اليوم، وأنت أيضًا لن تأتي!

ما هذا الذي تقول! هل أنت بوعيك؟!

نعم.. أنا أعي كل كلمة، آجلًا أو عاجلًا سننهي هذه العلاقة فلما لا يكون الآن، هذا أفضل، فأسرتي قريبًا ستحضر للعيش معي، ما حدث كان انحرافًا مؤقتًا في المسار، فأرجو أن تبتعدي بهدوء..

نعم... هلا تتكرم وتعيد ما قلت!

لا وقت لدى لهذا العبث، اعتقد أننا انتهينا!

سأتي إليك، فلا وجود لشيء اسمه انتهينا!

ابقي عندك.. هذا لا يجدي نفعًا!

لا بثينة الأفضل أن لا تأتي... أغلقت الهاتف، ستأتي وسأنتظرها، الماكرة لا تدع شيئًا يمر دون تحقيق لهذا سألت لِمَ لم أحضر دجال المنطقة، لكانت سألته، ستذهب لأبعد مما أتخيل، هذه المرأة لم تكن لتدعني وتخلي سبيلي ببساطة ويسر..

أعددت كل شيء لصقت الهاتف على الحائط خلف المكتبة وخبأته ببعض الكتب، بعد أن جربته أكثر من مره فلا أريد أي مهاترات جديدة، ثم وجدتني أجلس على الأرض ألتقط أنفاسي فحقًا أنا متوتر جدًا، ما الذي أنا بصدده، وبماذا تورطت يا لي من غبي أبله، وبماذا ظننت أن تكون نهاية هذا الأمر، هل ستنجح خطتي سمعت طرقاتها فقمت وسويت شعري بأصابع يدي المرتعشة ، فلنبدأ شغلت الهاتف، فبدأ يصور، فتحت لها بمجرد ما رأيتها

كشرت عن غضبي الكامن، ودخلت فورًا للكادر المناسب لالتقاط وتصوير فيلمي القصير بوضوح، فهذا المشهد لا إعادة له، جاءت خلفي، همت بالحديث لكني أخرستها، فهكذا سيسير الأمر لن أدع لها المجال للكلام إلا بعدما تيأس من إغرائي ويبدأ غضبها بالاشتعال فبادرت....

ألم أخبرك ألا تأتي إلى هنا، أيًا من حديثي لم تفهمي، أنا رجل متزوج، أخبريني يا امرأة ألكي زوج، دون أن أمنحها الفرصة قلت... أعلم، أنتِ لعنة التصقت بكل رجل دخل هذا البيت، محسن أخبرني بكل شيء تفاجأت بما قلت فامتقع وجهها..

أنه كاذب يلوث سمعتي بأقاويل كاذبة لأنه كان يرغبني وأنا رفضته!

خلعت عباءتها لتظهر مفاتنها، في محاولة لإغرائي كما توقعت، وقد كانت ترتدي ثوبًا فاضحًا وهذا بالطبع في محاولة منها لإنقاذ علاقتنا، بعد تلك المكالمة الهاتفية قبل أن تأتي، فكان هذا أكثر أثوابها عريًا وإثارة... جيد جدًا وفي صالحي، نظرت لها مظهرًا احتقاري واشمئزازي، حاولت الاقتراب وهمت بالحديث فألقيت بها على المقعد راعدًا متوعدًا.

ما أحقرك! لن تنطلي علي ألاعيبك، بالفعل كنت احتقرها للغاية، كم هي شيطانة مغوية، هنا أخذ الغضب منها كل مأخذ.

أنت مجنون لترفضني فمَن أنت! أنت لا شيء، لو علمت اسمًا واحدًا من معارفي وأصدقائي، وكم يتمنون أن أطلب منهم أي شيء، فاحذرني ولا تقف في وجهي، أنا أحصل دائمًا على ما أريد..

معارف أم عشاق!

سمهم ما شئت

كم عشيقًا لديك يا امرأة؟ هل تقدمين نفسك وجسدك لكل عابر سبيل؟ أنت فاسدة حقًا. أود لو اضربك وأقذف بك للخارج فهيا ارحلي، قبل أن أتهور وأفعلها، تابعت أكيل لها المهانة وأوجعها قدر إمكاني، أتعلمين ماذا أعتقد؟ أنت عجوزًا شمطاء أوشك نجمها على الأفول، وتريد أن تعزي نفسها وأنوثتها التي توشك على الزوال، بهؤلاء العشاق الكثيرين، عشاق الجيف من أمثالك...

وقفت وهي مندهشة من كم الإهانات التي سقتها إليها، باعدًا الحوار عما وقع بيننا، فليس من سبيل لأجعل الوضع يهدأ فتبدأ بألاعيبها التي لا تنضب، ويظهر هذا الأمر خيانتي؛ فثارت ثائرتها وكانت عيناها تقدح بالشر ووجهها أحمر من شدة الغضب، فقالت بصوت كما فحيح الأفعى ستندم على كل كلمة قلتها، الحديث بيننا لم ينته....

يكفي ما سمعت من تهديدات، بالفعل أمسكتها من يدها أسحبها للخارج، فلدي ما يكفي من مراودتها لي ومن اعتراف بأن لها أكثر من عشيق، وكذلك خلعها لعباءتها، وظهورها بملابس فاضحة لا ترتديها سوى العاهرات..

فقلت وأنا ألقي بها في الخارج تعفني بقذارتك في الجحيم... كم وددت أن أقول ذلك، يرى الإنسان كل ممنوع مرغوب ومزين، لكن ما أن تقبض على الجمر بيديك لا يصبح وقتها الوضع جميل أبدًا، وتسعى للخلاص من الجحيم أو تفقد نفسك وتبيعها للشيطان وتخلد هناك للأبد.

لم تمر سوي دقائق معدودة حتى قرع الباب ثانية، فتحت الباب والشر يتملكني، حقًا سأضرب تلك المرأة، ولكن لم تكن هي كانت غادة، وكانت تبكي هالني مظهرها، ما كدت انطق حتى سألت سؤالًا حيرني.. متي تعرفت على بثينة؟!

ماذا قلت؟

من أين تعرف بثينة؟

أقصد منذ متى؟

وما شأنك بهذا!

ارتبكت قليلًا وتابعت.... هي ضيف ثقيل غير مرغوب فيه، ولقد رحلت بلا رجعة، لكن مَن هي ومن أين تعرفينها أنت؟!

هي صديقة زوجة أبي ومكمن أسرارها، وزوجها شريك أبي في بعض مشاريعه.

حسنًا.. ذهبت فلا تشغلي بالك بها.

فقط أحذرك هي امرأة سيئة السمعة، ماكرة لا تأمن لها، كما أنك تعرف زوجها جيدًا.

أبدًا لا أعرف أي شيء عنها، سوى أنها بالفعل سيئة لذلك تخلصت منها، فمَن يكون زوجها..

إنه السيد رمضان.. مديرك!

مديري!! عندما قالت إنها أعجبت بي، ظننت أن هذا حدث حين قابلتها أول مرة، لكن الآن أثق إن الأمر أبعد من ذلك، أي جنون هذا، تحججت بتحذيري بينما كل ما هنالك أنها أرادتني بشدة، وإلا لما كانت ستفشي أسرار زوجها وكل ذلك للوصول إلى مأربها الخبيث..

إلى أين ذهبت.

لم أكن أعلم سوى اسمها وأنها جارة، حسنًا كانت أول من أخبرني بأمر صفاء، بينما كان الجميع يعلم ويخبئ ذلك الأمر عني، كيف يحدث أن كل مَن تعرفت عليهم لهم علاقة ما ببعضهم البعض.. أعتقد الصدفة الغريبة.

لا أعتقد!

ماذا تقصد!

أخذت أتطلع حولي للمنزل الفخم الذي بدا لي في تلك اللحظة حي يتنفس ويكاد ينطق، هذا المنزل وسكني به هو ما ساق إلى الجميع، وأدخلني تلك الشبكة من المعارف المتصلين ببعضهم البعض، المنزل هو العامل المشترك بيني وبين كل من عرفت منذ وطئت قدمي هذه المحافظة..

فجأة تنبهت لغادة وهي تراقب شرودي باهتمام قائلة: هل رأيتها؟!

مَن تقصدين؟!

صفاء!

افيقي يا عزيزتي، لا وجود للأشباح، الفعل كله لبشر على قيد الحياة، وإن كنت أشك في ذلك.. هيا اجلسي، وأخبريني بكل شيء، أولًا هل وجدت كارت الذاكرة؟!

للأسف أبحث دون كلل أو ملل ولم أعثر عليه، فيئست وقلت بأن آتي إليك، فماذا أفعل!

لا يجب أن تفقدي الأمل، أخبريني بشأن زوجة والدك وصديقتها لكن أولًا..

لا تقل طعام، صدقًا لا شهية لي إطلاقًا..

لا ليس ذلك، اغسلي وجهك ونظفي هذا الأنف الأنيق، ودونما اعتراض راحت بالفعل لتغسل وجهها فذهبت فورًا، واطفأت كاميرا الهاتف واطمأننت على أن المقطع قد تم تصويره، ثم وضعته في أحد الأدراج ريثما أبحث عن مكانٍ أمنٍ احفظه به، تلك البثينة داهية، ووراءها العديد من المفاجآت، أتمنى أن أكون وفقت في الخلاص منها.

أتت غادة بعد أن أنعشت نفسها قليلًا وبدت أكثر هدوءً من ذي قبل.

هيا أحكِ ولا تغفلي آية تفصيلةٍ مهما ظننتها تافهة.

عرفت بثينة منذ أن تزوج والدي زوجته، في بداية كنا نناديها خالتي، وذلك قبل أن أعرف أنها ليست سوى صديقة لها وليست أختها وقد علمنا تاريخها الأسود وكذلك زوجة والدي، لكن زوجة والدي أقلعت عن الطريق الحرام، وعفت نفسها بعد أن تزوجت أبي الذي بالنسبة لها صيدًا ثمينًا.

الخالة بثينة! كم يليق بها اللقب.. أكملي!

بثينة كانت لها سيرة سيئة بين الناس، فالتفت كما الأفعى على السيد رمضان وتزوجته، وكان موظفًا صغيرًا، وسرعان ما قطع تذكرة إكسبريس لأعلى السلم الوظيفي حتى أصبح مديرًا، وقريبًا سيترشح للانتخابات..

انتخابات! إن طموح الرجل لا حد له، أهو على علم بما تفعله زوجته في الخفاء؟!

اعتقد أنه يعلم بكل علاقتها، لكنه يدعي عدم المعرفة متعمدًا؛ ليحفظ ما تبقى من ماء وجهه، وهكذا المرأتان مرتبطتان جدًا، وزيادة في هذا الارتباط، دمجا بعضًا من تجارة زوجيهما ببعض، فجميعهم لحمة واحدة، وهذا كل ما أعرف، وأحذرك مرة أخرى، فاللعب مع هذه المرأة خطير جدًا، فهي مغوية تحب العلاقات الغرامية.

متى جاءت آخر مرة عندكم؟! أسمعت لها حديثًا هي وصديقتها زوجة والدك!

جاءت منذ فترة قصيرة، وكانت تتحدث عن مشروعها الجديد هكذا الرجال عندها مشاريع، كانت تقول إنها هائمة بهذا الشخص ولن يهنأ لها بال حتى يكون لها.

ماذا تقصدِ!

قطعًا هو متزوج وهي نويت أن تفرق بينه وبين زوجته، ولن يكون الأخير، فكم من البيوت خربت، ليخلو لها الجو وتتلاعب بفريستها كيفما شاءت، حتى تمل وتلفظها باحثة عن فريسة غيرها.

شعرت بغثيان، وأطرافي تجمدت، كم سهلت لها إغوائي، جيد أنني أخذت عليها دليل لأستطيع أن أبعدها عن حياتي قبل أن تفسدها، وقطعًا بعدما حدث اليوم بيننا، هي مهتاجة فلم تعتد أن يلفظها شخص ما، يجب أن تكون لها الكلمة العليا، وأن تمسك بخيوط اللعبة بين يديها، تبدأ وتنهي كل مشروع حسب أهوائها، الوضع خطير جدًا، قبل أن أفكر باستخدام الورقة التي أمسكها بين يدي علي اعتبار أنها الورقة الرابحة، بينما من الممكن أن تصبح شهادة وفاتي، يجب أن استنفذ كل الوسائل أولًا.

إلى أين رحلت؟!

أنا موجود أميرتي، لا تحملي أي هم كل شيء على ما يرام، أريد فقط التأكد من أن ذلك الكارت ليس موجودًا في البيت، ثم يصبح كل ذلك من الماضي، وستنسيه أؤكد لك، اتفقنا!

حسنًا

فقط تأكدي من ذلك، ولا تقلقي، قريبًا سأنتظر منك ردًا، وأمرًا آخر لا تتركيني دون اتصال لمدة طويلة، باستمرار اتصلي بي لأطمئن عليك،

سآتي واتصل كلما استطعت وسأبحث جيدًا.

ذلك هو الحماس المطلوب، إياك واليأس، تضيعين إن يئست، سأكون معك دائمًا.

رحلت، هذه المرة أعطيتها نقودًا أبت ثم رضيت بعدما رأت عزمي وصلابتي..

شاهدت مقطع الفيديو كاملًا كي يرتاح قلبي فوضعي مع هذه المرأة حرج جدًا، خبأته في مكان آمن، وجلست أُفكر السيد رمضان وبثينة حرمه المصون، وصديقتها وزوجها والد صفاء وغادة، مربع الشر ما هذه الشبكة العنكبوتية، لا بل هم أشبه بأخطبوط، جسد واحد وعدة أذرع، المرأة بثينة وسيادة المسئول، أو لنقل عدة مسئولين، هناك ثمة رابط بين صفاء وموتها وزوجة الأب والصديقة، فقط انتظر رد غادة، وأتمنى أن يخلف ظني، لي يومان لم أتحدث مع ليلى، الوقت تأخر، سأتحدث إليها صباحًا.

في الفجر استيقظت على جلبة في الدور السفلي، نزلت فزعًا ممسكًا أول شيء طالته يدي، فكان سيفًا من الخشب، يا للسخرية، أنا فارس مزيف.

ونزلت ولم أجد احدًا، استدرت لأعود لغرفتي فوجدته في مواجهتي، لم أجد حتى الوقت لأشعر بالخوف المميت، الذي جمد أوصالي وشل حركتي لثانية واحدة، فقد باغتني بضربة قوية بشيء ثقيل جدًا هوى به على رأسي، فسقطت فاقدًا للوعي، أنزف بشدة ودمائي الساخنة تسيل على الأرض والألم يغزو رأسي... ثم لا شيء...

مَن قال ـ أن الإنسان قبل الموت يمر بسلسلة من الأحداث التي وقعت له في حياته، في شكل ذكريات سريعة، كفيلم جرى تسريع أحداثه- مخطئ، لقد كانت أطول دقائق مرت بعمري وكنت أرى لحظات إخفاقي وأخطائي تمر بطيئة دون نهاية، أحاول دفعها بعيدًا، لماذا لا يوجد سوى تلك اللحظات، ألم أفعل شيئًا جيدًا في حياتي، أخذت أبكي، حتى جاءني صوت أبي يدعو لي، نعم لقد كنت بارًا بأبي أسعى جاهدًا لرضاه حتى وافته المنية وكان راضٍ عني، اتجهت إلى الجهة التي يأتي منها صوته، فوجدته ـ كم افتقدت هذا الوجه الحنون ـ بلحيته البيضاء التي بدت كهالة من الضوء، نظر لي ولم يتحدث ثم أولاني ظهره وبدأ يبتعد، مشيت خلفه..

أبي! انتظر، لم يرد، أهو غاضب لأفعالي السيئة، كم خذلته، شعرت بالخجل، مرة أخرى ناديت، فالتفت وأشار إلى طريق آخر، حانت مني التفاتة إلى ما كان يشير اختفى بعدها والدي... ثم لفني الضباب استيقظت لثواني، فتحت عيني فلم أرَ شيئًا، هل أصبحت أعمًا أو ربما أنا ميت، كنت أتحدث بصوتٍ مبحوح، وشعرت بألم في حلقي، مَن سينقذني الآن وأنا أعيش بمفردي حاولت أن أنادي لكن صوتي خرج واهنًا ضعيفًا، ومَن سيسمعني في هذا المكان المقطوع، لقد اختارت يومًا مناسبًا لقتلى الغد عطلة لن يشعر أحد بغيابي، ربما يوم الأحد عندما أتغيب عن العمل، سأحاول القيام من مكاني، ما كدت أحاول إلا وأمسكت بي يد أثنت عزمي عن المحاولة، قائلة..

لا تحاول هل جننت.

كانت تبكي وتتحدث بسرعة...

كنت فاقد الوعي لثلاثة أيام، ولم تستعد عافيتك إلا بالكاد

رغم عدم استعادة وعيي بشكل كامل إلا أنني لن أخطئ صوتها، فهتفت كما الغريق الذي وجد بصيص نور، ليلي أنت هنا، هل أنتِ حقيقة أم وهم

احتضنت رأسي بيديها، بصعوبة فتحت عيني لأصدق أنني لم أخطئ أو أتوهم، هي ليلى الحبيبة بوجهها الحنون الباكي طبعًا.

أنا حقيقة أيها المغفل! كنت أثق في أنك ستخفق ما إن تتوفر لك الفرصة لذلك، لكن ذلك ليس يوم الحساب، تعافي أولًا ثم سأقتلك...

كانت عازمة على محاسبتي فيما بعد كما قالت، حاولت الحديث معها بعدما استعدت وعيي بالكامل لكنها كانت تنهاني وتوبخني ثم تنخرط في البكاء، لا أعرف كم التخاريف أو الحقائق التي أدليت بها تحت تأثير الضربة على رأسي، وأيضا المسكنات القوية قاتلة الألم، وذلك أثناء ثلاثة أيام كاملة، كففت عن محاولة الحديث معها لكثرة ما بكت، حتى تعجب منها الممرضات والأطباء، فآثرت الصمت حتي نصل إلى البيت، وبالفعل سمح الطبيب بذلك بعد استقرار حالتي بشكل كافٍ؛ علي أن أكمل العلاج في البيت، فعدت ومعي زوجتي وصديقي عمر، وقد علمت أنها جاءت صباح يوم الجمعة بعد أن تركت أمي وأبناءنا في رعاية أختها الكبيرة، وقد عقدت العزم على المجيء إلى هنا، بعدما تسببت لها في القلق في آخر مكالمة بيننا، و يا لها من مفاجأة وجدتها في انتظارها، لولاها لكنت مت دون أن يشعر بي أي شخص، فلقد كان جرح رأسي غائرًا مميتًا، كبدني نزيفًا هائلًا كاد يودي بحياتي، أما عن صديقي عمر جاء بعدما اتصل على هاتفي للاطمئنان لأوضاع غادة، وما وصلنا إليه في بحثنا عن الدليل، وقد ردت عليه زوجتي فعلم منها ما حدث لي فأتى مسرعًا، ولم يتركني لحظة واحدة، أما عن غادة لم أعلم عنها شيئًا إلا بعدما اتصلت على الهاتف الأرضي، وكان عمر يمكث هناك كل ليلة، وعندما رد عليها ووجدت أن الصوت غريب؛ صمتت وربما كادت تغلق الهاتف لكن حصافة عمر وذكائه الذين جعلاه يدرك بأنها غادة، فبعد تلك الواقعة التي حدثت لي، كل الخفافيش ستقبع بعيدًا في مغارة مظلمة حتى تنتهي التحقيقات، فناداها مجازفًا، غادة أرجوك لا تغلقي الهاتف.. أنا عمر.. فتحدثت معه بعدما عرفها بنفسه، واطمأنت إلى أحوالي، وسألها عن الكارت وقالت إنها لم تجده

فتحدث معها مؤازرًا ومشجعًا حتى تصمد، فكما علمت منه أن حادثتي تلك أخافتها وأثرت فيها، كم ينتابني القلق عليها فلا أعلم ماذا حدث معها قال الطبيب أنني أُحضرت في الوقت المناسب، فقد كنت علي وشك الموت، والتحقيقات تقول بأنه لص باغتني فجأة بعدما واجهته، حسنًا حسنًا، سنرى، لم أتوقع تلك الخطوة من جانبها، هكذا كان ردها، فكيف لو علمت بالفيلم الذي صورته لآخر لقاء بيننا...

ها نحن في المنزل، حمدًا لله على سلامتك يا رفيق!

أشكرك عمر! لا أعلم كيف أرد جميلك هذا!

سأرحل الآن!

إلى أين؟!

لا تقلق سأدبر أمري، كنت أمكث هنا لأن زوجتك كانت تبيت بالمشفى معك، أما الآن وقد عدتما معًا، فلم يعد هذا يليق!

أستاذ عمر، لا داعي لترحل المنزل كبير وصدقًا أنا أرحب بوجودك، تستطيع المكوث دون الشعور بأي إزعاج، سأرحل في غضون يومين، وأنت وعدتني بأنك ستبقى مع زوجي حتى يتعافى تمامًا، وأنا سأرحل مطمئنة لذلك، فلا أستطيع ترك أمي والأبناء لوقتٍ أطول.

هيا عمر يكفي دلال، لا تتحسس هكذا، فما الذي ستخلي له الطريق وأنا على هذه الحالة، رحلت ليلى مسرعة وقد أصابها الحنق والخجل من كلامي، بينما نكس عمر جبينه، حتى غابت ليلى عن أنظارنا، فقال..

ألا تخجل من نفسك! ما هذا الذي قلت! إن زوجتك تشك بكَ وهي غاضبة للغاية، فلا تزيد غضبها أكثر، وحاول إرضاءها، ولا تتركها ترحل غاضبة، أفهمت يا مغفل!

أنا بالفعل مغفل كبير، أوقع نفسه في الكثير من المتاعب، ولازال الأمر الأكبر قادم فهل أنت مستعد للمواجهة إلى جواري، لم أخفي علنك شيئًا، حتى مالا يقال لأنك أصبحت معي في هذه اللعبة الخطيرة، والتي فاقت خطورتها أبعد التصورات، فها أنت ترى بعينيك ما حدث معي.. تطلعت إلى رده متخوفًا، لو اختار تركي وحدي لن ألومه... فقال مبتسمًا ببساطة وهدوء يوحي بالارتياح

أعشق المغامرات، ولا أهاب المخاطر، فأنا معتاد عليها، سأكون معك وحدنا وسأروي لكَ ما ستندهش له من مغامراتي، لكن إلي أن ترحل ليلى سأبعد عن طريقكما قدر الإمكان، فهذه ليست حربي!

لا داعي لذلك!

بل هناك داعٍ، واجه مشاكلك وإلا تفاقمت وأصبحت بلا حلول، وستندم.

سأفعل، بالفعل أخشى النظر لعينيها ومواجهتها، لكن لن اتركها ترحل إلا بعد أن يصبح كل ما بيننا على ما يرام!

فأريد أن أصفي ذهني لما هو آت....

أنا ذاهب إليها، أدع لي!

أتمنى لك الخير يا رفيق، سأبعد عن خط النار الآن!

حسنًا.. لكن ذنبي في رقبتك، ضحك وانصرف فبقيت وليلى وحدنا.

كانت ليلي تجلس متحفزة، ولن أجعلها تهدأ فجلست في مواجهتها حاولت احتضانها؛ فرفضت ودفعتني..

كيف تكون بهذا القدر من التبلد إياك ومحاولة استمالتي بهذه الطريقة، أو تظن أنك تفلت كل مرة وتتنصل من أفعالك مهينًا ذكائي.

قلت أراوغها، اعتذر عما قلت أمام عمر، حقًا آسف لا أعلم كيف تفوهت بذلك، ربما تلك الضربة على رأسي أتلفته..

نظرت لي شذرًا...

لا تحاول العبث لا أريد التحدث إليك إلى أن أرحل، فلو تحدثت سيكون حديثًا صاخبًا ورأسك المتلف لن يتحمل ذلك، كما لن ترغب في هذا وصديقك هنا.

حسنًا صديقي رحل، اصرخي، افعلي ما بدا لك، لن تفلتي مني، بدأت أحاول الاقتراب منها مجددًا.. بدأت تبكي وهي تتكلم وتدفع صدري المهيمن عليها بكلتا يديها، فهي أقصر مني

أنا أكرهك... وكثير ما فكرت في تركك، لكن كنت أضحك على نفسي قائلة أن نزواتك عابرة، ولا ضرر منها، وأنك تعود في النهاية لي وحدي، ألوم نفسي لأنني تزوجت من رجل وسيم، فما الذي كنت أنتظره منك، أما الآن وقد أخذت خيانتك أبعادًا أكثر عمقا، فلن أقبل بذلك أبدًا.

لم أتعجب مما قالت وقد آمنت بأنها كانت تستشعر كل تغيير يطرأ علي، مع كل نزوة مررت بها، لكن أن أعلم أن ألمها وشعورها بالمهانة والقهر كاد أن يدفعها لأن تتركني وترحل، فهذا أمر خطير جدًا، كان لابد أن أسحب البساط من تحت قدميها، وأقوم بنسف كل هاجس لديها بخصوص هذا الأمر، وإلى الأبد وليس أفضل من ذلك الفيلم القصير ليوضح حقيقة ما حدث، وإن

دلست لتلك البراءة الكاذبة بشأني فلن أتورع عن ذلك أبدا، فليسامحني الله على هذا الذنب أيضًا، فبادرت قائلًا بصوت راعد حتى آلمني رأسي بشدة، لكن وضعي مع زوجتي أصعب من وضع رأسي الموجوع، وتلك أهم معركة أخوضها وإلا خسرت حياتي بأكملها، لأن ليلى هي حياتي ولن أعيش دونها، فتابعت قائلًا بغضب وعزة نفس ما هذا الذي تقولين، عن أي خيانة تتحدثين، هل جننت يا امرأة، إذا انعدمت الثقة بيننا لهذا الحد فلابد أن ننفصل فلا حياة تقام على أسس باطلة وغش، لكن أولًا أوضح لك حقيقة الأمور وأظهر براءتي وبعدها ارحلي وافعلي ما تريدين، لن أمنعك أو آبه لكِ.. بهتت بموقفي هذا فتركتها وذهبت، وأحضرت الهاتف من مخبأه، وجعلتها تشاهد الفيديو، كانت مذهولة مما شاهدت وسمعت، جففت دموعها وقد بدأ الوجوم عليها، نظرت لي بخجل، لا يجب عليها أن تخجل فأنا المذنب حقًا، يا الله ماذا أفعل، كنت أؤنب نفسي صامتًا، ففسرت صمتي على أنه غضب، وربما اعتقدت أن كل ما بيننا انتهى، ثم احذروا ماذا، نعم بدأت تبكي بحرقة، تركتها مجبرًا

ثم جلست في جانب بعيد حتى انتهت، ثم جاءت تتحدث متلجلجة كمذنبة، أشعر بمدى ظلمي لها، لكن من يلومني أريد إنقاذ بيتي وحياتي المتمثلة في زوجتي، وأبنائي بالطبع، قالت بصوت خافت دل على ندمها: ألهذا حاولت قتلك!

قلت كاذبًا كي لا أقلق راحة بالها عندما تتركني وترحل، فهي تحرسني جيدًا بتواجدها حولي ودومًا كانت هكذا، ملاكي الحارس لكن عندما تبتعد سيقتلها القلق... في الواقع لا أعتقد بأنها مَن فعل، ربما كان لص كما قيل في التحقيقات هي زوجة مديري، امرأة لها نفوذ وسطوة ومعارف أخذت عليها هذا الفيديو؛ كي أهددها في حال إذا ما أبت الابتعاد عني، فلا تقلقي لا اعتقد أن تتمادى لهذا الحد، فهي حتى لا تعلم بوجود هذا الفيديو، الأمر كله من قبيل الصدفة لا أكثر، بدأت تقترب مني على استحياء، محمد، أنا آسفه، لا أدري ماذا أقول! لقد ظلمتك!

حقًا يا ليلى أنا مصدوم مما قلت، جلست تنظر للأرض بحيرة، فلم استطع أن أقل أو أن أفعل أكثر، يكفي ما فعلت لأن استقيم العمر كله، وهي تستحق مَن هو أفضل مني، سيكون عليَّ تعويضها ما حييت عن جملة أخطائي، وما سببته لها من أوجاع، اقتربت منها واحتضنتها فلانت بين يدي، هل تعتقدين أنني من الممكن أن أحب غيرك، أنتِ مجنونة لو صدقت ذلك، أنا أحبك أنتِ وأعشقكِ أنتِ، وسأبقى ما حييت على ذلك وتلك الحقيقة بلا أي غش، نظرت لي بمحبة وكأنها تحفظ ملامح وجهي ثم غبنا معًا في قبلة، جعلت جسدي يئن ويطالب بالمزيد، فأصبح اعتصاري لها اكثر تطلبًا، علمت بأي قدر تشتاق إليَّ فتماديت، ولكنها دفعتني لأبتعد عنها فاستجبت، وأخذت أتطلع إليها بعيني ذئب جائع يرغب في التهامها، كم هي جذابة بارتباكها وخجلها الذي لم تفقده بين أيادي الرجال فهي امرأة لرجل واحد وهو أنا، يا لغبائي لم أذكر تلك المخلوقة البغيضة أو أعقد مقارنة بين جنتي وتلك النار، كم كنت مخطئًا يا ابن القاسم، كانت مازالت تحاول لملمة شعثها الذي تسببت فيه...

قلت ببراءة وأنا مازلت احتضنها ويدي تبث فيها الرغبة... ماذا ألستِ مشتاقة لي. تهدج صوتها حتى أنها اضطرت لتسعل حتى يخرج...

بلى اشتاق إليك كثيرًا، لكن الطبيب قال لنا سويًا يلزمك راحة تامة، وعدم بذل أي جهد، أنا وأنت نعلم ماذا كان يعني بذلك..

تبًا له! نظرت إليها وقد ابتعدت قليلًا بينما عيني تأسر عينيها، لم تستطع المقاومة أكثر فاقتربت ففهمت الإشارة، ورحت اقبلها بهدوء وسكينة، كنت مطمئنًا دون اسراع بحرارة متناسيًا كل شيء، عدا هذه اللحظة السرمدية الرائعة، شعرت بكل متعة تأتي تباعًا؛ فلا اختلاس أو سرقة أو اضطراب، ذلك الذى كان يصيبني حال المتعة الحرام، شعور مقيت، أتمنى أن يأتي يوم وأنسى فيه كل ذلك، فهذه الذكريات التي تباغتني في غير وقتها كانت عقابي عن أفعالي السيئة، كانت ليلى منتشية تهذي بالرغبة وأنا مثلها فغرقنا سويًا في

بحر له موجات زهرية اللون.... لم ندرِ إلا وقد جن الليل، نامت ليلى وكنت راقدًا أتطلع إليها بسعادة، وأنا مكتفي ومطمئن فلا وجود لأي ندم أو شعور بالذنب، غير شاعر بأي ألم جسدي، وقد اختفت كل أوجاعي تقريبا، شعرت حقًا بسلام وبأن كل شيء سيصبح على خير ما يرام.. ونمت!

استيقظت على صوت الهاتف، كانت ليلى ماتزال نائمة تقلبت لكنها لم تستيقظ، ذهبت للخارج، فلم أرغب في ازعاجها، كان المتصل عمر..

أين أنتَ، لماذا لم تعد إلى الآن!

أردت إفساح الطريق لكما أي طريق يا أبله! ومَن أين علمت بأننا تصالحنا، علمت من صراخ زوجتك وأن ذلك الأمر سينتهي بأمران لا ثالث لهما، إما الفراق، أو المصالحة المفعمة بالشوق، وأعتقد أنه انتهى بالثانية ولهذا كان الخصام وقود إشعال الحب في بعض المراحل.

لذلك لم تعد يا فيلسوف العشقِ!

نعم! ستشكرني لاحقا، لا تقلق، معي عدة التخييم.

هل تمزح! كيف ذلك؟ لا اطمئن لهذا، تخييم، في أي البلاد تظن نفسك!

لقد خيمت في أماكن أشد وعورة، وأحيانا في صحاري وقفار مملؤة بالحيات والعقارب، والكائنات الغريبة، صدقًا لو كنت أعلم بكل هذا الجمال لدينا ما كنت ذهبت للخارج أبدًا، لا تقلق بشأني، سأعود بعدما ترحل ليلى.

أخيرًا استيقظت الأميرة النائمة، لقد أحضرت الإفطار، فتحت عينيها بدهشة.

أنت مَن جهز الإفطار! كيف هذا! أنتَ مريض! كان يجب أن توقظني لأعتني بكَ فلهذا جئت.

ليلى حبيبتي انس تلك الأمور، لقد اعتدت الاعتناء بنفسي، وليس معنى ذلك بأنني استغني عنك، لكني لن أعود لذلك الكائن المتطفل، الذي يحيا على جهد الآخرين في العناية به، ولا يفعل شيئًا في حياته سوى الذهاب للعمل والنوم، كما أنني أريدك لأمر آخر أهم، قلت ذلك غامزًا بعيني فاحمرت خجلًا ثم قالت ما أدهشني حقًا، ليتني أحضرت معي بعضًا من ملابسي الخاصة؛ فقلت أداعبها ومن بحاجة للملابس، هذه أول فرصة نأخذها منذ شهر عسلنا، فأنا وأنت وحيدان، قهقهت فهذه المرأة تحيرني حقًا.

تجاهلت ما قلت..

صحيح، أين صديقك هل نسيته! كما أن هناك أمرًا خطيرًا بخصوص تلك المرأة التي من الممكن أن تكون وراء محاولة قتلك، أنا لا اطمئن لتركك وحدك بعد كل ما حدث، يجب أن نتحدث بدأت تأكل وتطعمني بيديها... فقلت: لا تقلقي فقط خذي بطاقة الذاكرة معك وأنتِ راحلة، لضمان سلامتي سأرسل لها هذا الفيلم مهددًا إياها بأن تبتعد، وإلا أنه في حال وقوع أي أذى لي هناك من سيتولى إبلاغ الجهات الرسمية وتسليم نسخة من الفيلم لوسائل الإعلام أيضًا... كانت شاردة تفكر في كلامي وقد كفت عن الطعام.. همت بالكلام فأسكتها بطريقتي المعتادة.

محمد ماذا تفعل!

كما ترين أرفع الصحون، بما أنك شبعت، فأنا جائع جدًا ولا سبيل لإخماد جوعي إلا بالتهامك، احتضنتها مقبلًا، فاستجابت على الفور، قالت بصوت ناعم، أي من تعليمات الطبيب لم تفهم، هذا خطأ لا نعلم مدى تأثيره عليك، حتى تسافري فلا تشغلي بالك بأي شيء، وبالله عليك لا تفسدي تلك اللحظة

بذكر الطبيب، أنا أكره ذلك الطبيب على فكرة، كما أن عمر رحل مؤقتًا، أنتِ لي وحدي ليومين، وأنا ملكٌ لك وحدك.

هل تذكري ليلة زفافنا، كم كنت عروسًا جميلة خجلة!

أحمر وجهها بشدة...

وما الذي ذكرك! كدت أموت من شدة الخجل!

وما زلتي تحمرين خجلًا، وهذا يثيرني ويجعلني أجن بكِ، فمتى أصل لتلك المنطقة البكر المختبئة داخلك والتي لم تفقديها مع ما فقدتي من بكارتك يوم زفافنا وإلى الآن، كم يدعوني ذلك لاستكشافك جزءًا جزءًا، حتى أجد تلك المنطقة فاقتحمها وأثبر أغوارها..

صمتت ولم ترد، كانت مبهورة بما أقول، فتحت عينيها على إتساعها تنظر لي بدهشة طفلة صغيرة وشعرها منتشر في كل مكان، قالت بهمس: هل تعلم تأثير ما قلت علي، وكأنك أحييتي، أعدك أن أهتم بعلاقتنا أكثر فقد أهملتها كثيرًا، أعترف بذلك

لا تقلقي سنهتم بذلك سويًا؛ فلا تشغلي بالك بما سبق، كنت مخطئًا برمي كل الأعباء على كاهلك أعدك سأعوضك!

احتضنتني بشوق ورغبة ومرة أخرى انجرفنا سويًا، وبقينا هكذا إلى أن سافرت عائدة للمنزل..

أوصلتها أنا وعمر، ودعتني بالدموع، على وعد أن تلقاني قريبًا..

كنت صامتًا طوال الطريق، أفكر.. ما الخطب الجلل في بضع كلمات وأفعال كتحضير الإفطار أو رفع سفرة الطعام، في مقابل هذا تحصل على

امتنان من المرأة، يجعل منها شخصًا آخر مختلفًا عن ذلك الكائن الذي يئن وينوء بالحمل وحده، مهملًا لا يشعر بالتقدير، فيشكو طوال الوقت، أحب زوجتي كثيرًا.

وسأجدد هذا الحب دائمًا، وأبدًا لن أجعله يموت عطشًا لكلمة حب، أو فعلة حب أو شعور بالاحتياج والحرمان، لقد تزوجت ليلي عن حب، وأنا الآن أعشقها وأعلم أن جذوة هذا العشق مشتعلة بقلبينا ولن أجعلها تنطفئ أبدًا..

أخبرني يا صديق، كيف تفعل ذلك

ماذا!

أتت زوجتك بحالٍ، ورحلت بحال أخرى، فماذا فعلت؟، أنت ماهر أعترف لك بذلك، وأرفع قبعتي احترامًا

ضحكت بشدة، وقلت له:

اسأل ليلي

نظر لي مندهشًا... فتابعت ساخرًا

سأخبرك لاحقًا، كيف تتعامل مع النساء أو ربما ألفت كتابًا

حسنًا.. لم لا؟ فيبدو أنك رائد في هذا المجال!

دعنا نستعد لما هو قادم، ماذا سنفعل؟

أنا أعلم ماذا سأفعل! سأتصل بمحسن وأثق أن لديه رقم هاتف بثينة الخاص، سأرسل إليها الفيديو..

لا.. انتظر ولا تتعجل، هل أعطيت نسخة من هذا الفيديو لزوجتك كما اتفقنا!

نعم!.. فعلت مثلما أشرت علي، ولكن لِمِ الانتظار؟!

إذا أردت حقًا التخلص من تلك الورطة التي وجدت نفسك فيها، يجب أن تبحث عن رأس الأفعى وتضربها بقوة، اسمعني جيدًا يا عمر! ومرة ثانية وأخيرة لا أريد توريطك بأي من ذلك، أثق برأيك كثيرًا؛ لذلك قصصت عليك كل شيء، لأنك بمساعدتي تكون متورطًا معي، فكان يجب إخبارك ولأنني أثق بك، وكم كنت مسرورًا وأنا أفضي إليك بما أهمني وأثقل كاهلي، فإذا ارتأيت أن تؤمن نفسك مما هو قادم، أفعل، أنا أقدر ذلك، وأقدر كل ما فعلت، كنا قد وصلنا البيت وكانت هناك؛ فهي تقابلت مع عمر بالأبام الماضية، وقصت عليه كل شيء، في محاولة منه لإدراك أي شيء قد نكون أغفلناه، نظرت لعمر، فبادر يقول..

أنا أخبرتها أن ليلي راحلة اليوم، وأنها تستطيع المجيء..

أنتَ لا تضيع الوقت!

لا وقت لدينا لأضيعه، أهذا يجيب على سؤالك فيما إذا كنت أريد البقاء أو أفضل الهروب..

شعرت بالراحة تغمر قلبي وتحمست، في الداخل جلسنا نتشاور معًا فيما سنفعل الفترة القادمة، أولًا ما هي آخر أخبارك معهم في المنزل، أهناك أية محاولات للمضايقة؛ فبدأت تبكي.. انتظرت أن تهدأ وقد أشار عمر بيديه أن أتركها حتى تنتهي من البكاء، فصمت على مضض، فمن عنده الصبر لذلك، أوصالي تجمدت والبرودة تسري بها، ماذا إن فعل بها هذا المتوحش شيئًا! كم أود لو انتزع روحه، لا بل سأعذبه أولًا.

هدأت قليلًا، فقلت لها بصوت حازم، اذهبي فورًا اغسلي وجهك وتمالكي أعصابك، وعودي عندما تكونين مستعدة للحديث، فذهبت على الفور!

ماذا تعتقد أنه حدث؟!

حقًا لا أرغب في التكهن بذلك حتى، لكن أرى أنه لا وقت لدينا!

نعم وأنا معك، سأتحرك فورًا! لا داعي للمماطلة والبحث عن رأس الأفعى!

امنحني أربعًا وعشرين ساعة لا أكثر يا محمد، سأذهب لشراء بعض الأغراض من المتجر، وأترك لك المجال للحديث مع غادة إذ أنه على ما يبدو، تتحفظ في وجودي...

حسنًا هذا أفضل!

عندما عادت غادة، كان عمر قد رحل، فشعرت بارتياحها لذلك.

حسنًا أخبريني بما حدث!

أول أمس دخل لحجرتي، كنت أغط في النوم فلي ثلاثة أيام لم أذق النوم، بسبب نظراته الغريبة الشاذة والمقززة، استيقظت.. فوجدته يتحسس جسدي، كنت أضع عصا إلى جوار فراشي أغطيها بطرف الشرشف، لكن يدي لم تصل إليها فقد أمسكني بقوة، مكبلًا يدي محاولًا تقبيلي، ظللت ألف وجهي يمنة ويسرة كي لا يتمكن من ذلك، مقرف! ظللت أحاول المقاومة، وكأن آثار النوم أضعفت جسدي، تذكرتك وكلماتك إن يئست تضيعين، فاستجمعت كل قوتي ودفعته وأمكست العصا، فتحت المصباح كي انظر لوجهه أهو ذاته نفس الرجل الذي كنت أدعوه أبي، وكأن الضوء دحر شره ظل واقفًا، ينظر لي بحيرة، اعتقد أنه كان يحسب الأمر.

أيقترب ويأخذ ضربة على رأسه ترديه أم يبتعد ويؤثر السلامة، لم أتمالك نفسي اقتربت لأهاجمه،

فخاف وتراجع فطردته وهددته بالقتل إن اقترب مني مرة ثانية، فرحل وكان يشتم ويتوعدني..

تنفست الصعداء، حسنًا فعلتِ، متأكد جدًا قريبًا ينتهي كل هذا!

لكنه هددني بالحبس في البيت.

لا تقلقي، سجلي عنوانك بالتفصيل، وأيضًا رقم الهاتف الأرضي في حال إذا حبسك، استطيع الوصول إليك.

فعلت، ثم استأذنت ورحلت، وقلبي يشيعها كأنها تساق لحتفها، كنت اتمزق وأنا أراها ترحل، بينما لا يجب أن تفعل، يجب أن أبقيها بأمان، ولكنني أشعر بالعجز والضعف....

مرت الساعات متثاقلة بعد أن ذهبت غادة وتركتني لهواجسي، أفكر وحدي في كل ما حدث وهي فرصتي الوحيدة؛ لأكون وحدي وأقيم الأوضاع، تحسست الضربة على رأسي فآلمتني... انظر إلى أين وصلت يا هذا، كدت تفقد حياتك، يا لها من بلدة شرٍ، وأرض خصبة للعصاة، آمنت بأن هناك أرضًا طيبة وأخرى خبيثة، بمعنى أن الأرض الطيبة تخرج أفضل ما فيك، والخبيثة تفعل العكس فلا تنصل من المسئولية الخيار متوفر دائمًا، والفعل فعل الإنسان خبيثًا كان أم طيبًا...

فجأة سمعت صوت الباب، مؤكد هذا عمر، لكن لماذا يدق الباب وهو يحمل مفتاحًا للمنزل، كنت أحدث نفسي فاتحًا الباب لكن ما صدمني رؤيته عند الباب كان هي، كيف وبأي وجه تأتي إلى هنا، كنت على وشك أن أغلق الباب بوجهها، لكن تذكرت ما صار، وآثرت السلامة على أي شيء آخر، أخذت نفسًا عميقًا مهدئًا نفسي وقلت: لا يجب أن تكوني هنا، فلست وحدي!

مَن معك؟! ألم يرحل شبح المرأة المحترق!

كانت تتكلم ببرود، فقلت أغيظها...

لا تقلقي منها أنها غير مؤذية على الإطلاق، يزعجني صوتها فقط عندما تصرخ في الليل، وتنادي قائلة: أنها ظلمت وستأخذ حقها ممن ظلمها!

ارتبكت وظلت تنظر حولها كما تفعل كلما تأتي سيرتها، أهو الخوف من الأشباح أم أنها بالفعل لها ضلع فيما وصلت إليه تلك المرأة من يأس ثم انتحار، كنت أشك في ذلك والآن أصبحت على يقين سأجاريها وسأعرف، ولن انصدم إن كان لها يد.... ترى أين ذهب عمر أتمنى أن يأتي قريبًا! أتمنى ألا يكون قد أصابه مكروه فالوقت تأخر، والله إن كان يخيم في مكان ما سأقتله...

أغلقت الباب وكالمعتاد اقتربت مني محاولةً عناقي فادعيت الألم وأبعدتها، ماذا تظنين نفسك فاعلة أنا مريض كما ترين، كدت أن أموت..

لا تقل ذلك! أنا لا استطيع العيش من دونك، فأنا أحبك، عندما علمت بما حدث لك كدت أجن، ولولا وجود زوجتك، لدخلت إليك المشفى بأي طريقة

بحق الله، تقول أحبك.. لم استطع الصمت أكثر، أو تهدئة نفسي وقد ولي هذا الأمر إلى غير رجعة، فقلت بعصبية وأنا أمنع نفسي من الإتيان بفعل سيئ جدًا: أنتِ مجنونة يا امرأة، ولا صلة لكِ أو صفة في حياتي لتدخلي إليها، أنتِ سقطة ولست أكثر من ذلك، وكفى عن الادعاء، تعلمين وأعلم، وقد هددتني وبأنني سأندم، ونفذت تهديدك ببراعة مدبرة لكل شيء وبسرعة فائقة، ألديك دائمًا قاتلًا مأجورًا تحت الطلب أهو على زر الاتصال السريع!

نعم لدى! فتعقل.. أحبك، وأعلم إما أن أحصل عليك أو تموت!

يا للورطة الكبرى، تخبرينني بأنك أرسلتِ مَن يقتلني وفي الوقت ذاته، تحبينني وتطالبين أن أكون لك عاشقًا محبًا، أي حب هذا! يا لك من حقيرة متبجحة!

نعم! الأمور معي تسير هكذا تبقى معي حتى اتخلى أنا عنكَ، وكف عن الإساءة بحقي، أو ...

أو تقتليني!

نعم أو أقتلك! أفهمت الدرس جيدًا؟!

أخبرتني بأنكِ تعرفين المزيد من الرجال في نفس الوقت أحقًا هذا!

نعم...وما شأنك فأنا امرأة حرة وحية.

كذبت، أنتِ ميتة لا تشعر بشيء، وكلما بردت جثتك حاولت إنعاشها بالعلاقات، وكلما فشلت في إحياء روحك وجن جنونك، وأردت أكثر، لتثبتي أنك ما زلت حية، لكنك بارعة في تمثيل دور المرأة الراغبة المفعمة بالرغبة لتصبحي بذلك حلم كل رجل، بينما جل ما ترغبينه هو الهواة، حتى لا يكتشفون برودك العاطفي ويلعبون دورهم في تمثيليتك الهزلية السخيفة، كم كنت غبيًا!

كلما لفظتني كلما التصقت بك أكثر؛ فلم يسبق أن تركني أحدهم أو تعامل معي هكذا!

أنا أكرهك.. هل تسمعين!

لم يسبق أن جربت ذلك من قبل.. فهل جربت!

بماذا تهذين!!

obeikan.com

أن تفعل ذلك كارهًا... سيكون ذلك حتمًا له مذاق مختلف

شعرت بدمائي تفور من شدة الغضب، فتابعت.. أنتِ أرض بور كلما حرثها الرجال أكثر؛ وجهدوا فيها لإحيائها ازدادت قساوة وملوحة.

أصبت منها نقطة أوجعتها حقًا فتلون وجهها بالغضب...

اخرس! وإلا لن يكون لديك حتى وقتًا لتندم، فالمرة القادمة لن أرسل غبيًا يتركك بين الحياة والموت، سأتأكد بنفسي من موتك!

ارتعدت أوصالي لكنني تماسكت، بت أعلم جيدًا أن تلك المرأة لا تطلق تهديدات جوفاء، لكن سأستغل تبجحها؛ فهناك شيء أود أن أعرفه، وسأعرفه...

بما أننا في فترة بوح ومصارحة، ما شأنك والمرأة المحترقة، أرى أن سيرتها تزعجك فما القصة، ارتبكت قليلًا، وتلفتت برعب كما تفعل كل مرة؛ وقالت بعد برهة: لا يد لي فيما فعلت بنفسها، كانت أجمل بناتي وكنت قد أمسكت في يدي أمرًا يجعلها تتصاع وترضخ لإرادتي، بعدما فشلت كل وسائل الترغيب الأخرى، لكنها كانت غبية ولم تستغل جمالها بشكل صحيح، الكبراء كانوا يتهافتون عليها ويتمنون رضاها، ولكنها كانت عفيفة جدًا، وغبية فانتحرت مفضلة الموت على الثراء والعز.

ما سمعته جعلني أسقط على أقرب كرسي، هذا يعني أن زوجة الأب صورت المقطع كي تعطيه لصديقتها، التي بدورها هددت به الفتاة لتطوعها وتقدمها للرجال، وتقول إنها كانت أفضل بناتها..

أنتِ قوادة إذن!

أسمني ما شئت!

وبكل تبجح اقتربت مني محاولةً إغوائي بسفورٍ و وقاحة، التصقت بي تضغط صدرها بجسدي الصلب، ثم احتضنت رأسي بين دفتيها؛ فتأوهت من الألم، فحقًا مازال الجرح يؤلمني، لكن ما فعلته بنفسي من الداخل يؤلمني أكثر.

آسفة نسيت فأنت ما زلت مريض، سأتركك الآن وأعود لاحقًا، وقريبًا جدًا فأنا أشتاق إليك، الأفضل أن تكون وحدك، هذا رقم هاتفي الخاص، لا تجعلني أنتظر

رحلت تاركة كل عالمي وقد تحطم... أخذت ألهث كما لو كنت أعدو لوقت طويل، حتى أنني شعرت بألم في صدري، قد كانت صفاء تعمل معهم إذن، لكن مجبرة، لم تكن زوجة أبيها تهددها بإخبار زوجها، لكن هددتها لصالح بثينة؛ لتعمل لحسابها في الدعارة ربما كلتاهما شريكتان في هذا العمل القذر، وأغرقوها في عالم العهر حتى كرهت نفسها؛ وأرادت الموت حاملةً معها أختها، وبكل حال من الأحوال لم تكن لتخبر غادة بحقيقة أمرها، فكان أن أخبرتها بأن زوجة والدها تهدد بفضحها عند زوجها، ومن ثم اتفقتا على الانتحار للخلاص من كل شيء، لو قص أحدهم علي تلك القصة لم أكن لأصدق، أهناك حقًا على الأرض بيننا أشخاص على هذا القدر من الفساد والفسق، أي مستنقع نحيا فيه وأي شر يحدق بهذا الكوكب!

تذكرت كلمات بثينة الأخيرة وتهديدها.. من الأفضل أن تكون وحدك!

عمر، هي تعلم بوجوده وملازمته لي ربما كانت تراقبنا، إذا أوذي عمر بسببي لن أسامح نفسي أبدًا، أين أنت يا عمر؟!

أنا موجود يا رفيق أين سأكون، لا تقلق كل شيء مسجل، وقد سمعت كل ما تود أن تبوح به، لكن أنا من عنده ما يقول...

كان يلوح بالكاميرا الرقمية الصغيرة التي في يده...

تهاويت استرخي وقد شعرت بكل عضلة في جسدي تؤلمني من كثرة توتر أعصابي... أحقًا صورت كل ما حدث!

نعم.. وبصورة فائقة الجودة، أفضل من هاتفك بمائة مرة، الآن وقد أصبح معك دليل آخر يثبت جرائم تلك الشيطانة.

قمت وقد دب الأمل في قلبي بعدما حطمني اليأس، احتضنت عمر، والتزمته طويلًا كنت أتعلق به، وكأن الأمل قد تجسد في شخصه الكريم....

لا أدري كيف أشكرك، فقد أنقذت حياتي.

لا تضخم الأمر، ما نحن بصدده أمر خطير

هل علمت شيئًا؟!

أجل... بعدما تركتك مع غادة ذهبت لبيت بثينة.

لم تخبرني ومن أين عرفت طريق بيتها؟!

لم أرد ازعاجك، فأنا في الواقع أراقبها من عدة أيام، وقد حصلت على العنوان من غادة، كنت أسلي نفسي بينما أنت مشغول مع ليلى.

التخييم! يا لك من خبيث! لماذا لم تقل؟ من تلك اللحظة يجب أن يخبر أحدنا الآخر بكل تحركاته، وهذا للأمان.

حسنًا.. أوافقك على ذلك، لقد كنت مريضًا ولم أرغب في ازعاجك، كما إنني اعتدت على العمل وحدي، من الآن وصاعدًا سنعمل سويًا.

أخبرني ماذا حدث؟!

في الأيام الماضية لم يحدث شيء الأوضاع طبيعية وعادية، لكني قبعت هناك حتمًا سيحدث شيء ما، خيط بداية؛ ولم أكن لأعود إلا ويبدي أول هذا الخيط، اليوم تحديدًا هو يوم الإنجازات، مكثت كعادتي أشرب شاي مع واحدٍ من المزارعين كنت قد تعرفت إليه في الأيام الماضية، فهكذا أراقب دون أن أثير الريبة إلى أن خرجت المرأة من بيتها وظللت في أثرها، فأخذت جولة طويلة وأنا معها خطوة بخطوة، تسوقت وتبضعت أشياء كثيرة، ظننت أنها لبيتها..

لم تكن لبيتها إذن، تذكرت ما كانت تحضر لي من أغراض وأطعمة، فقلت أمازح صديقي: لديها الكثير من الأفواه لتطعمها!

فعلًا! لكن دعني أكمل، لم تذهب للبيت!

أين ذهبت إذن! نظر عمر لي شذرًا.. قلت معتذرًا: سأصمت!

هذا أفضل..

ذهبت لمنزل آخر، أنيق للغاية وحديث، على الأطراف المترامية للبلدة، منعزلًا تمامًا.

الاستراحة الجديدة؟!

أجل.. وهناك خرج رجلٌ قويٌ مفتول العضلات في الواقع هو أشبه بحارس للمكان، أخذ منها ما حملته من مشتريات، وبعد فترة قصيرة جاءت امرأة علمت وظيفتها وصفتها في المكان، من تلصصي عليهم من النافذة الخلفية للمنزل، مختبأ في الأجمة تحت تلك النافذة متحملًا قرص حشرات اقتحمت عالمهم الخاص فاعتبروني عدو..

لم أستطع الصمت قطعت حديثه قائلًا: تلك مجازفة منك يا عمر ماذا لو امسكوا بكَ!

لا تخش فأنا حذر جدًا!

حسنًا انتبه لنفسك، فهذا خطر! هؤلاء الأشخاص لا يعرفون المزح وأياديهم ملوثة بالدماء.

انتهى الخطر، فدعني أخبرك بما رأيت!

قلت متشوقًا لأعرف، ماذا رأيت من تلك النافذة، من تلك المرأة، أهي فتاة ليل رائعة الجمال ؟!

يا لمخيلتك المتسعة! ضميرك سيء، إنها المرأة التي ستعد الطعام، وهي فلاحة.

غرقنا سويًا في الضحك، ثم ما لبثت أن تذكرت المرأة المرسال، التي أتت تحمل الطعام كتحية من الجيران... اعتقد أنني أعرف نذير الشؤم هذه، هي إحدى معاونات المرأة الخبيثة، وبعد ذلك ...

لا شيء! خرجت بثينة بعد حوالي الساعة بعدما أعطت التعليمات للجميع، والكل هناك يعمل على مهامه من التنظيف إلى تحضير الطعام..إلخ إلخ إلخ

ألم تخمن بعد لمَن ذلك المنزل؟!

طبعًا! مَن غيره! السيد المسؤول!

أجل.. وأكيد المزيد من ضيوفه فهناك وليمة كبيرة تعد هناك، اليوم ربما أوفي الغد على أبعد الاحتمالات، لا وقت لدينا؛ فما الخطوة التالية؟!

سأتصل الآن ببعض الأشخاص ممن يهمهم الأمر، حتى يصلون على الوقت.

مَن تقصد؟!

بعض صحفي ومصوري الصحف الصفراء، وبعض القنوات الفضائية التي تهتم بفضائح المسئولين كثيرًا.

نظرت إليه مندهشًا، اسكتني بإشارة من يده؛ فقد بدأ يتصل بالفعل حاملًا هاتفه يذرع الأرض مجيئًا وذهابًا... عاد بعد حوالي ربع ساعة وقد أنهى كل اتصالاته وعلى وجهه نظرة رضا.

حسنًا... سيأتون في أول قطار.

لكن!!

لا تخبرني بأن هذا خطأ، أحيانًا لا تقدر على محاربة الشر إلا بالشر، والأمور دائمًا ما تأخذ منحنً واحدًا، فلا تقلق، الشرفاء ممن يهمهم سمعة الوطن سيخفون الأمر، وينهونه بأقل خسائر ممكنة، وسيتم التعامل مع سيادته على أساس أنه مراهق غر، أخطأ وسيسامحونه، وسيحمل ملايينه مبتعدًا، وسيأتي غيره، والأمر يبدو أنه دون نهاية إلى أن تقوم الساعة، لكن كل ذلك لا يهمنا، الدوي هو ما نريده وهو ما ينفعنا في عملنا دومًا، فلا تقلق، لا شأن لنا سوى أهدافنا.

نعم!

لا تنس الهدف الرئيسي من كل ذلك؛ وهو تأمينك أنت وغادة.

غادة أولًا يا عمر! الوضع حرج جدًا معها، قصصت عليه ما حدث وأخبرتني به الفتاة؛ فثارت ثائرته.

اتصل عليها يا محمد، أخبرها بالمستجدات، هذا كفيل بمنحها القوة التي تلزمها لتصمد، نريد من صبرها وعزيمتها يومان لا أكثر من ذلك، ولم أندهش لغضبه، فأي رجل حقيقي سيغضب.

فقلت اهدئ من روعه، لا تقلق غادة فتاة قوية ولن تستسلم، أعلم جيدًا فقد تصدت له بقوة ولديها العزم، كنت لأطلبها وأقص عليها الأنباء الطيبة هذه، لكن الوقت تأخر... سندع ذلك للصباح!

أنت تتعامل معها بشكل جيد وهي تثق بك، وحقًا أنت تدير الأزمة ببراعة شديدة، أحييك على ذلك

شكرًا رفيقي... ماذا سنفعل الآن؟

أرسل المقاطع لبثينة

الآن!

نعم!.. ألا تريد مقطع الفيديو الخاص بصفاء، وقد تيقنا بوجوده عند بثينة فهو الشيء الذي هددت به صفاء!

أجل.

إذن يجب أن يتم ذلك الآن قبل ضبط سيادته متلبسًا بأفعاله الفاضحة، فتقوم بثينة بالتخلص من كل الأدلة لديها، الآن يا محمد هيا!

معك كل الحق! لا أعلم ماذا كنت أفعل من دونك؛ أشعر بالإثارة ولا أصدق أن كل شيء سينتهي، وقريبًا جدًا

أرسلت المقاطع في أقل من

الثانية، وعمر مسرور يتحدث باغتباط...

الظروف خدمتنا كثيرًا، كان من الممكن أن ننتظر أسبوعًا أو شهرًا حتى نمسك برأس الحية، وهو وقت طويل، لا نملكه لنقتطعه، من وقت الضحية الوحيدة وسط كل هذا الأمر "غادة".

قلت مبتهجًا... تم!

ماذا؟

أرسلت المقاطع!

والآن سننتظر! إن لم أكن مخطئًا، ستتصل في غضون دقائق.

ما إن تنتهي من مشاهدة أفلامها الوثائقية المباشرة لأسوأ ما في الحياة من شر، ستواجه أفعالها وتحاسب عليها.

لا.. لن تكملها فهي تعلم جيدًا محتواها، ستنصاع لنا، فسمعتها من سمعة من يقفون في ظهرها، لو علموا برعونتها ومدى حمقها، لتخلصوا منها فورًا، تذكرت تلك اللقطات التي أخذتها لملفات وصور شيكات واعتمادات إصلاح سكك حديد مصر، وقلت أخذ رأي عمر، بينما نحن ننتظر على ذكرك لملايين المسئول، لقد اطلعت من موقعي كنائب للمدير، على صور شيكات واعتمادات تساوي ملايين وهي مخصصة للإصلاح، واعتقد أن هناك سرقة ونهب، هي سليمة من الناحية القانونية، لكن إذا ضاهينا حجم الإصلاحات بتلك الملايين، بحسبة بسيطة يتضح النهب والفساد الإداري.

وأين هي تلك الملفات؟!

في المؤسسة طبعًا!.. بدا متأسفًا.

لا تقلق لدى صور بكل شيك واعتماد وهي واضحة وعليها أختام وتوقيعات المدراء.

ابتسم... لا بأس كل شيء يجيء في وقته فتلك قصة أخرى، كما وأننا لسنا واثقين مما إذا كان هناك فساد فعلي نستطيع كشفه

تأففت من الانتظار، لماذا لم تتصل؟!

ربما لم تراهم بعد، فاليوم هي منشغلة أو...

رن الهاتف فأسكتنا... نظرنا لبعضنا البعض

ماذا؟ هيا رد!

ماذا أقول؟!

ما بدا لكَ، لكن لا تنسى أن تطلب فيديو صفاء!

رفعت سماعة الهاتف.

أتعرف مع مَن تلعب!

كانت تتبجح في محاولة لزعزعة ثقتي بما في يدي من حبل لففته جيدًا حول رقبتها، فبادرت بصوتًا أعلى من صوتها، إذا كانت معركة أصوات عالية فسأربحها...

اخرسي يا امرأة أنا لا ألعب معك، ولا ترفعين صوتك مرة أخرى، أنا لست بغبي لألعب معكِ، تلك المقاطع قد تم إرسالها في نفس الوقت لإحدى القنوات الفضائية، مع صديق وفي كل حال من الأحوال، حيًا كنت أو ميتًا

obeikan.com

سيتم إذاعتها في برنامج مباشر، وسيراها الجميع بمَن فيهم عشاقك ممن لا أجرؤ على ذكر أسمائهم...

كانت صامتة نظرت لعمر فأشار عليَّ بالمتابعة فقلت: إلا إذا، صمتت أيضًا لكني كدت أسمع صوت تنفسها المتقطع المضطرب..

فقالت فجأة: حسنًا ماذا تريد؟

ابتعدي عني يا امرأة، لست أنا الرجل الذي يجب أن تعبثي معه.

حسنًا سأفعل، اذهب للجحيم ولكن اعطيني ضمانًا بأنك لن تفضحني.

لا ضمانات، تظل رقبتك في يدي، هناك أمر آخر!

ما هو؟!

ما الأمر الذي تمسكينه على المرأة المحترقة، قلت أنك كنت تجبريها على فعل الفاحشة، صمتت برهة؛ وقالت: وما شأنك؟!

فقط أجيبي دون أسئلة.

حسنًا... هناك مقطع لها مع والدها، وعدة مقاطع أخرى مع آخرين، صورتهم بنفسي.

أريد كل شيء يخص صفاء، هل تسمعين!

أجل.. لكن أريد أن أفهم ما همك بصفاء؟!

لا شأن لكِ بذلك، فقط نفذي ما أقول ودعينا ننتهي.

لكن هناك مقاطع يظهر فيها أشخاص لا يجب أن يظهروا أبدًا.

هل كنت على علم بذلك، أنت من تبرع بتلك المعلومة المثيرة، نبذت في سري حقًا امرأة غبية للغاية، أو مغرورة جعلها الغرور تعتقد أنها فوق الجميع، فأزال عنها غرورها كل تحفظ فأصبحت تهرف بكل ما تعرف... لم أنت صامتة؟ رعدت أقول، أريد كل شيء حالًا، فليس هناك وقت فقد نفذ وقتك يا امرأة.

اسمعني فقط لدقيقة!

ماذا؟!

هؤلاء الأشخاص سيأذوننا!

عفوًا.. لماذا الجمع، أأنت خائفة عليّ! لقد نسيت فأنت تحبينني!

تبًا لكَ!

كدت أغلق الهاتف، فسمعتها تقول: إذا عقدت معك صفقة، أتمنحني تلك المقاطع! وأعدك أن أتلف كل دليل عندي لصفاء.

عن أي صفقة تتحدثين، ثم إياك وإتلاف أي شيء أتسمعين، أشار لي عمر بأن أجاريها...

يا الله... أنتِ تماطلين!

فقط دعني أنهى ما أود قوله!

معك دقيقة واحدة، ما نوع تلك الصفقة وأهميتها لي؟!

هناك مقطع آخر لأختها غادة

كدت أسقط الهاتف على الأرض من شدة الصدمة، تمالكت أعصابي قائلًا: وعلى ماذا يحتوي؟

أنه لها مع والدها أيضًا

غامت الدنيا في وجهي هل فقدناها!... تابعت تقول..

لقد صورتهما زوجة والدها وهو يحاول اغتصابها، ولم ينجح يبدو أنه أصبح عجوزًا ليتغلب على شابة فتية مثلها، لكننا اقتطعنا منه الجزء الذي يظهر مقاومتها وردعه، وفشله في إتمام ما أراد.

تنفست الصعداء، كدت أموت رعبًا، لو لم تقص على غادة هذا الأمر لكان أصابني الجنون، أطلقت لنفسي العنان.. يا لوقاحتك يا امرأة، أي صنف من البشر أنتِ! أنتِ أحقر امرأة على وجه الأرض، الاتفاق بيننا ملغي، يجب على أن افضحك فلا تستحقين سوى ذلك، أغلقت الهاتف في وجهها، عالمًا أنها ستتصل مرة أخرى.

لماذا فعلت ذلك؟!

صبرًا صديقي لا تقلق، ذهبت وغسلت وجهي الذي كان مكفهر من شدة الغيظ والإرهاق والتوتر العصبي، وخرجت مسرعًا.. على صوت الهاتف؛ لأرد

نظر عمر لي بإعجاب قائلًا..

يا لك من داهية!

ابتسمت في وجه صديقي وأنا التقط سماعة الهاتف... سمعت صوتها تقول وقد فرغ صبرها ماذا تريد؟!

لا صفقات، أحضري كل شيء أو... تعلمين! إن الأدلة على غبائك ورعونتك معي تخيلي نفس الاسماء التي هددتني قائلةً إني سأموت رعبًا لو سمعت اسمًا واحدًا منهم، هي أيضًا نفس الأسماء التي أهددك بها الآن، أخبريني ماذا سيكون رد فعلهم لو شاهدوا تلك المقاطع، لن يسعدهم الأمر أبدًا، انقلب السحر على الساحر وانتهى الأمر!

حاولت أن تتحدث فبادرت: احضري كل ما لديك وفورًا، ثم أغلقت الهاتف في وجهها مرة أخرى.

كانت أنفاسي متقطعةً، أشعر بالدماء الحارة تندفع إلى وجهي وتحرق قسماتي..

اهدأ الأمور تسير بشكل جيد.. أحسنت!

كنا على وشك أن نفقدها!

مَن؟؟

غادة! لقد قاموا بتصويرها عندما حاول والدها اغتصابها منذ أيام؛ لإكراهها على البغاء كأختها

لكن غادة مختلفة عن صفاء، لم تكن لتقبل.

لا لن تقبل! كانت لتفضل الموت على هذا!

أتقصد أنها كانت ستفعل كأختها وتنتحر!

أجل! فماذا تركوا لها سوى اليأس! وقد ظلت تعتقد بأنها كان يجب أن تكون ميتةً مع أختها.

ولكنك لم تكن لتدعها، قد ساعدتها.

هل حقًّا فعلت؟ لا أعتقد... فقد أغرقت نفسي في مشكلة كانت ستجعل مني عبدًا مطيعًا، وكنت لألتهي بحالي عنها، لولاك لضعت وضاعت غادة أيضًا.

غير صحيح، كنت بالفعل قد حللت مشكلتك نوعًا ما بتسجيل الفيديو الأول، فهون على نفسك.

لا يجب أن تعلم غادة بما كانت تفعل أختها؛ فهي تعتقد إن مصيبتها الوحيدة فيما كان يفعله والدها معها، ستقهر لو علمت بإكراهها على البغاء؛ فأي جور تعرضت له الفتاة، وبأي ذنب، كانت طفلة فلما يحدث لها كل هذا، أيعقل أن يجتمع كل البؤس والشقاء في قلب امرأة واحدة!

لماذا يفعل الله ذلك!

اهدأ صديقي! لا تفعل ذلك في نفسك، كنت منذ أيام أمسك بيدك وأنت فاقد الوعي، أخبرك بأن كل شيء سيكون على ما يرام، فقط لا تتبع الضوء الأبيض في ذلك النفق البعيد، واليوم وقد مَنّ الله عليك وعافاك وسترك، سأمسك يديك قائلًا: كن من الشاكرين، ولا تتبع النفق الأسود، إن الظلم الواقع على صفاء، والطريقة التي انتهت بها حياتها فيه حكمة بالغة، عندما يظهر كل هذا للعلن، ستصبح رمزًا ملهمًا، للكثيرات ممن يقعن في تلك الدائرة ويمكثن فيها صامتات، ويكون مصيرهن إما القتل بعد الحمل سفاحًا وعلى يد مَن؟ مغتصبيهم من الأقارب أب، خال، عم، أخ، إلى آخر المحارم، أو ينهون مآسيهم بأنفسهم بالانتحار كصفاء، لكن قصة صفاء ونهايتها المؤسفة وغادة وانقاذها بإذن الله، سيضع الخيارات أمام هؤلاء النسوة والفتيات، لينقذن أنفسهن قبل فوات الأوان، فلا تسأل الله لماذا فعل! سبحانه "لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون"، هذه كوارث بشرية أخي فلا تشتت أفكارك، ولا تسأل الأسئلة الخاطئة نحن من يرتكب الشرور والآثام، والله يسترنا..

تذكرت وضعي وما منَّ الله به عليَّ من هداية وعودة للطريق القويم؛ فاستغفرت الله وتوجهت لصديقي قائلًا وقد بهرتني شخصيته أكثر من ذي قبل..

كل يوم اكتشف فيك أشياءً تبهرني وتزيدني احترامًا لك، لم أكن أظن أنك على هذا القدر من الورع!

حسنًا.. لست ورعًا كفاية، كلنا خطَّاء، كل ما في الأمر أنني سألت قبلك نفس الأسئلة وكدت أجن، كيف تسير الأمور لما نخطئ لما الله يقبل بأن نخطئ، ظللت في تلك السكة طويلًا حتى خلصت للأجوبة التي يتقبلها عقلي كمؤمن بالله، فأردت أن أوفر عليك، وهي مراحل يجب أن يمر بها أي إنسان من الفضول والبحث عن أجوبة لتلك الأسئلة العالقة.. ثم فهم وإدراك، ثم يقين...

هنا دق الباب، فكانت هي، لم أسمح لها بأن تطأ أرض المنزل، ناولتني الحقيبة التي حملتها.

أهذا كل شيء!

متأكدة! أما من نسخ، هزت رأسها بالنفي.

أنت وعدت!

لا تقلقي سنوقف البث المباشر في الوقت الحالي، إلى أن يتضح لي أي تلاعب من ناحيتك، فيكون أفضل لو ابتعدت عن طريقي فلا أريد رؤيتك مجددًا، أغلقت الباب في وجهها، فأحدث صوتًا عاليًا

أفرغت الحقيبة، كان هناك بطاقتي ذاكرة وعدة اسطوانات؛ بطاقتي الذاكرة هما ما أردنا تمامًا، سأتصل بالمحامي فورًا وأرسل له المقاطع، تحسبًا لأي شيء يحدث، لنبدأ الإجراءات

وما الذي سيحدث! لا ضمانة لشيء من الممكن حريقًا آخر يلتهم كل شيء، الاحتياط واجب

معكَ حق! متى يأتي المحامي؟

صباحًا سيأتي رجلنا المنشود، وهو القائم بأعمال منظمتنا الحقوقية وممثل الفتاة أيضًا، وسيقدم بلاغًا بما لديه من أدلة، غدًا سيتهم الأب بهتك عرض بناته، ستأخذ النيابة بتلك الأدلة وتحقق معه، وسينقلب العالم، وستصبح قضية رأي عام وما سيحدث بعد ذلك لا شأن لنا به فدورنا ينتهي عند حماية الفتاة.

وهنا أعرض عليك أمر ما!

ماذا؟

مما رأيته من ثقة استطعت أن تكتسبها من الضحية، وأسلوب احترافي في التعامل مع الأزمة واحتواء الضحية وحمايتها نفسيًا وبدنيًا؛ وهو وإن لم تكن تعلم ليس بالأمر الهين..

صدقًا كيف فعلت ذلك؛ فهؤلاء الضحايا لا يثقن بأحد إلا بعد عناء، وهو أهم شيء فيما نفعل، يجب أن تثق الضحية بالوسيط كي تفصح عن مكنونات قلبها وأسرارها بتخليها عن الخوف، كي نستطيع مساعدتها.

فكيف فعلت؟!

الصدفة والفضول!

ماذا؟!

كما سمعت قادتها الصدفة إليَّ وفضولي وإصراري ما جعلها تضطر للثقة بي، في الوقت الذي كانت ترغب في منح ثقتها لأي شخص كان.

ضحك عمر ساخرًا؛ وقال: اشرح من فضلك!

سأشرح لك... عندما تخلو عليك الحياة من كل من أحببت ووثقت يومًا، وفي حالة غادة كانت الأخت صفاء، عندها أغلقت السبل الطبيعية فلا شخص واحد تضع ثقتها فيه، أقرب الناس هم الأعداء، إذن الغريب هذا، وهو أنا طبعًا، ربما كان أفضل منهم وأستطيع أن أثق به، سأجرب فهو ربما أفضل من لا شيء، هكذا فكرت! أعتقد أن هذا هو كل الأمر، كنت الطريق الغير مأهولة وكان عليها أن تمشيها منحرفة مجازفة، ربما نجت، مع الحذر طبعًا.. بطبيعة الحال لم أعتقد أنها كانت تثق فيَّ مائة بالمائة على الأقل في البداية.

تحليل جيد يا رفيق!

لم تخبرني ما الأمر الذي تعرضه عليَّ!

صحيح، أتعلم أن كثيرًا من الأشخاص يتمنى العمل معي، لكن ليس الجميع يصلح لذلك العمل، لذلك أعمل منفردًا، فأنا أريد شخصًا بمواصفات معينة، وأنت من تصلح في هذا العمل فعندك كل المواصفات المطلوبة.

نظرت له بدهشة، فتابع..

لا أريد ردًا الآن، فهو عمل مهلك على المستوى النفسي والعاطفي.

أنا أعمل معك!

نعم!.. فقد تأكدت من أنك خير من يتولى هذا العمل، وهذا لأني فشلت حيث نجحت أنت مع الضحية؛ فهي لم تثق في بقدر ما وثقت بك وبانت أواصر وروابط بينكما حقًا أنت ماهر..

قلت مستنكرًا الكلمة: الضحية!!

أجل!...هن ضحايا ولا نتداول أسمائهن بيننا حتى لا نبني بيننا وبينهن أي مشاعر عاطفية، وتلك أمور ستطلع عليها إذا قبلت العمل من خلال دورة تدريبية تؤهلك أكثر لهذا العمل فتخيل ما سيحدث لو كل واحدة منهن أصبحت جزءًا أصيلًا من نفسك، فما الذي سيحدث!

عندما تبتعد، ستأخذ هذا الجزء معها، في النهاية لن يتبقى شيئًا منك، ستكون فارغًا وحيدًا حتى وأنت بين الناس، في هذا العمل يجب أن تنحي العواطف فيه جانبًا فهمت عنما يتحدث، أجل سأطمئن عندما ترحل غادة وتكون بمأمن، لكن جزءًا مني سيحزن لأني لن أراها مرة أخرى....

معك حق! كلامك صحيح جدًا.

المحامي سيأتي صباحًا، وسيكون كل شيء على ما يرام فيما يخص غادة، سيتولى كل شيء.

مضت عدة ساعات... وصل بعدها أصدقاؤنا من صحفيين ومصورين لبعض الجرائد والفضائيات ومعهم معدات حديثة، أخذ أحدهم يتفقدها لضمان سلامتها بعد هذا السفر الطويل، كان جميعهم رجال، ولكن معهم امرأة واحدة، اعتقد أنها مذيعة ربما.. طلبت تستريح من عناء السفر وأرشدتها لمكان الغرفة... فنامت معظم الوقت.. طلبت ليلى وطمأنتها على أحوالي... ارتاحت نسبيًا بعدما علمت أن أصدقاء عمر يمضيان بعض الوقت معنا، لم أخبرها

طبعا بأمر المرأة معهم، فهي بغنً عن هذه المعلومة، وجلسنا نتفق على ما سنفعل، قام عمر بوضع خطة، فبادر بالحديث:

لا يجب أن نضيع تلك الفرصة، سأذهب إلى البيت وأراقب وعندما يبدأ الوضع بالمجون والجميع ينتشي وينشغل سأدخل متسللًا وأصور الجميع، بعدها أعطيكم الإشارة، للذهاب لقسم الشرطة وعمل البلاغ بوجود منزل مشبوه، يدار لأعمال منافية للآداب وهذا دورك يا محمد بصفتك من السكان المتضررين من سمعة المنزل؛ ولأنني أثق في أن الكل متواطئ فجميعهم هنا نسيج واحد فاسد، لكن المقطع الذي سأصوره سيثبت صدق البلاغ، ومأمور القسم وأتباعه أمام الكاميرات، والرأي العام سيؤثرون سلامتهم على أي حسابات أخرى، وهذا دور من سيرافقونك من صحفيين ومصورين.

استمع الجميع لرأي عمر وأخذوا ينفثون دخان السجائر حتى امتلأ المكان به، لكن لم استطع الصمت على ذلك.

لكن ألن يعرضك ذلك للخطر! مؤكد أن كل شخص من هؤلاء لديه ما لا يقل عن أربعة حراس، سأذهب مع البعض والبث سيكون مباشر وسنرى الأوضاع هناك، وبدراسة عشوائية سنجد الحلول.

عشوائية!... هذه مخاطرة.

حسنًا ربما.. ألم أخبرك أن عملي كله يعتمد على ذلك، لو كان هناك حلولًا أخرى ما كنت لاضطر للمخاطرة، لكن لا تقلق فالحلول تأتي وليدة اللحظة، وأنا جيد في الارتجال، كما أن هؤلاء الفاسدين أمامك، عذرًا أصدقاء، سيذهبون بمجازفاتهم لأبعد مما تتصور في سبيل السبق الصحفي.

همهم بعضهم بادعاء أن مشاعرهم جرحت والبعض ضحك.

ذهب عمر وأحد الأصدقاء للمراقبة، فلم نجزم بعد بموعد الحفل أهي الليلة أم غدًا!.. انتصف الليل والأوضاع هادئة، على ما يبدو الحفلة في الغد، لكن عمر لم يأتِ فهو متخوف لضياع تلك الفرصة، إذ إننا لا نعلم متى تأتي مرة أخرى كنت أضيف الرجال!

استيقظت المرأة وانضمت لنا، علمت أن اسمها نهال - وهي جميلة جدا، لا تفهموني خطأ، لم أحملق بها لأعلم أنها جميلة، لكنها جميلة - ثم اتصل عمر وقد كان محقًا بتحليه بالصبر والفراسة في انتظاره الطويل؛ فهؤلاء القوم يطوعون الوقت فيخضع لهم ولا يخضعون له، ولا تسري عليهم قوانين الطبيعة، أكد عمر بأن الحفل بدأ، وهكذا اتخذ كل منا وجهته لتبدأ خطواتنا نحو النهاية.

ذهب البعض من الرجال إلى عمر، وذهبت أنا مع البعض الآخر لننتظر الإشارة لأتقدم بالبلاغ.

كنت أظن أن اختراع الهاتف المحمول، ودخول عدة وسائط عليه كالتصوير والتسجيل هو للمتعة ولتخليد بعض اللحظات، التي تعيشها العائلة والأبناء في مناسبات عدة، كم أصبحت الأشياء البسيطة في أيادينا معقدة ومسننة، وذات نصال متعددة، كم نحن مشوهون للمدنية بكل أشكالها...

جلست مع أصدقائي الجدد على إحدى المقاهي، التي تستقبل الرواد حتى الساعات الأولى من الصباح، وهي على مقربة من قسم الشرطة؛ متأهبين لتنفيذ الجزء الخاص بنا من الخطة لكن الفتاة لم تأتِ معنا، كنت أظنها مذيعة وإن كنت لا أعرفها، لكن جمالها واهتمامها بنفسها يوضح ذلك، لكن تعجبت عندما ذهبت معهم وليست معنا؛ إذن ليست مذيعة حسبما خمنت....

ظللنا نثرثر ونتسامر كأصدقاء يمضون وقتًا ممتعًا؛ بينما أحدهم كان يهتم باستقبال الإشارة لبدأ البث المباشر على جهاز الكمبيوتر النقال.

كنت متوترًا أفكر، إذا كان سيادة المسؤول سيفلت بفعلته، مسافرًا بغنائمه فما الفائدة من المجازفة بحياتنا ووقوفنا في وجه الطوفان، وما أن تكسد بضاعة بثينة للإتجار بلحوم وأعراض النساء والفتيات؛ سيرحل أيضًا وذلك عندما يقبض عليها بالجرم المشهود، ومعي الأدلة التي تثبت نيتها لقتلي وتهديدي ثم التنفيذ بتحريض شخص ما على ذلك، لكن لو دخلت السجن هناك زوجة الأب التي تتولي الأمر من بعدها فهي شريكة لها في هذا العمل المشبوه، ولو ثبت إدانتها بالتواطؤ مع زوجها في جرائمه في حق ابنتيه، سيجد المسؤول ألف امرأة تقوم بالعمل بدلًا منهما، لا حل ولا خلاص لتلك البلدة ونسائها وفتياتها إلا بقطع الرأس، لن أنجو بنفسي بحبس بثينة، وأنجي غادة بانتشالها من براثن أبيها، ثم أترك رأس الأفعى يعيث في الأرض فسادًا، حقًا أثق بعمر، هذا ما يجب أن يحدث أيًا كانت العواقب، عمر محق... ها أنا خرجت من دائرتي التي تطبق على عقلي من وقت لآخر فأظل أدور فيها في حلقات مفرغة..

استرعي انتباهي أحد الأشخاص الجالسين معي

ماذا!

أشر لصديقك

فوجه الجهاز النقال تجاهي فشاهدت عمر الذي يعرض نفسه للخطر، وهو يشير ليِّ ويبتسم، ابتسامة تمنح الثقة والأطمئنان.

بعد حوالي نصف ساعة... كنا نجلس بترقب لا نفقه شيئًا مما يحدث فكل ما رأيناه على الشاشة هو محاولة للدخول والتفاف بالكاميرا يمنة ويسرة دون رؤية واضحة، فيما بدأ إنها محاولة لإيجاد ثغرة للوصول للداخل، ما الذي يحدث، حقًا لا نعلم، ثم اتصل عمر على هاتفي

محمد، لدينا مشكلة

ماذا! كنت قد تحمست لإحماء الأجواء واحتدام الصراع، وانتصار الحق على الباطل مطمئنًا نفسي بأن ما نفعله هو الصواب، ماذا إذا فشلنا، لم يخطر ببالي هذا الاحتمال كما لو أنه غير وارد على الإطلاق

ركز معي يا محمد أين ذهبت لا وقت للتردد أو للتراجع، احتاجك بكامل تركيزك.

حسنًا.. ماذا تريد مني أن أفعل!

ستتصل ببثينة.

مَن؟! لماذا!!

لا استطيع الدخول فلا ثغرة!

ثم ماذا؟

اطلب بثينة كي تشغلها؛ لأن لدينا خطة للدخول من الباب الأمامي.

من الباب الأمامي، أنت مجنون! تماديت في جنونك وجمحت كثيرًا.. مَن تظن نفسك! قال بحزم وحدة: اسمعني جيدًا لا تتدخل فيما سأفعل، إذ لا شأن لك فلا تتحمل وزري نحن لا نفعل ذلك للتسلية، لو كل جهة تقوم بعملها لما اضطررنا لذلك فاهدأ واسمعني..

حقًا يفعل ما عليه وأكثر..

فلا شيء آخر لدينا لنقتنص الحق من قلب الباطل.. قلت بخضوع حسنًا ماذا تريد أن أفعل!

obeikan.com

سندخل ولكن لابد من وضع بثينة تحت أعيننا؛ حتى لا يتصل بها أحدهم، وإذا حدث امنعها بأي طريقة من الرد..

وكيف تقترح أن يتم ذلك! لم يكن بيني وبين تلك المرأة سوى شيء واحد..

تصرف يا محمد بما يقتضيه الموقف، أنت رجل داهية ولن تعييك الحيلة..

حسنًا.. سأفعل! هكذا عدت للبيت طلبت بثينة، كنت محبطًا لأنني ظننت أنني لن أرى وجهها، أو أسمع صوتها مجددًا.. ردت بصوتها المقيت!

ماذا تريد؟!

تشدقت بالكلام قائلًا: تعرفين جيدًا ماذا أريد!

هل جننت! أنت طردتني من بيتك وأهنتني، وطلبت ألا ترى وجهي مرة أخرى!

وأنتِ حاولتِ قتلي، فماذا كنت تريدين أن أفعل!

إذن انتهى الأمر، فماذا بعد كل ما حدث بيننا، أنا حتى لم أعد أرغب بكَ!

قلت استخدم جملة قالتها لي: الأمر لا علاقة له بالرغبة، ألم يحدث أن فعلتي ذلك كارهة! تعالى الآن وفورًا، وإلا!! تعرفين ماذا سيحدث!

أغلقت الهاتف وأنا أعلم أنها ستأتي حتمًا، طلبت عمر، أخبرته أنها في الطريق.

حسنًا يا رفيق عندما تأتي شغل زر الاتصال، وسأفهم أنها وصلت.

عمر!

نعم!

انتبه لنفسك!

قال يغيظني ممازحًا انتبه أنت، فأنت في وضع حرج أكثر مني، انتبه لذنب تلك الحية!

قلت ضاحكًا: معك حق!

بالفعل أتت، ففعلت مثلما قال عمر، ثم أدخلتها.

أتريد أن تسجل فيلمًا جديدًا؟!

لا؛ فما لدى يكفي ويفيض، لماذا تقفين هيا اجلسي! بالفعل انصاعت ولكن عندما أوشكت أن تجلس، باغتها قائلًا: على الأرض!

نعم!

كما سمعت! أجثي على ركبتيك!

أنت جننت، بالطبع لن أفعل!

لست المجنون هنا، بل أنت إن لم تنصاعي للأوامر، خلعت حزامي وبدأت أهددها... كوني فتاة مطيعة وإلا ضربتك!

كادت تذهب؛ فأخذت الهاتف، وعندما رأتني توقفت، بالفعل كلمت عمر..

أهلًا صديقي! أي من البرامج الحوارية يذاع في وقت قريب؛ أصحيح!... اممم هذا يعتمد على مدى التعاون، أجل في الصباح الباكر، ومباشر هل نسب.. أمسكت الهاتف من يدي وسمعت صوت عمر يقهقه؛ ويقول..

obeikan.com

أجل نسب مشاهدته عالية للغاية، تقريبًا كل المصريين يشاهدون هذا البرنامج قبل الذهاب للعمل، فقط اعطني الإشارة وسأقوم بعمل اللازم، أخذت الهاتف منها وأغلقته، تعقلي وإلا!!

جثت على ركبتيها تبكي، وجلست قبالتها واضعًا قدمي أمام وجهها، اليوم تدفعين الثمن!

أتعلمين! أنا شخص سادي أحب الضرب والتعذيب، كنت أظن أنني قد ودعت هذا الأمر في طفولتي بعدما أشبعت ساديتي بتعذيب وقتل الكثير من الحيوانات الضالة..

نظرت لي بحنق وكره.. فتابعت، ثم تناسيت وكبرت وتزوجت وعدلت عن هذا السلوك غير السوي، إلا أنه طبع يسري بدمي.

نظرت لي غير مصدقة؛ وقالت باحتقار: كنت تضرب زوجتك إذن! يا لك من رجل!

تأدبي يا امرأة في الحديث معي! ثم تابعت أجيب عن سؤالها بغضب وقهر... للأسف لم أجرؤ على ضرب زوجتي فوالدتي تعيش معنا، ولن تسمح بذلك، لكن منذ أن أمسكت رقبتك الجميلة هذه بين فكي، ونفسي تطالبني للعودة للسادية، قلت وقد حاولت أن تبدو الحماسة على صوتي، سيعجبك الأمر!

كنت أتحدث وأنا أراها تبكي ذلًا وقهرًا؛ فلم تستطع الصمود أكثر، أعلم أنها تحب أن تكون في الجانب القوى، ولها اليد العليا متحكمة في كل شيء، استضعافي لها بهذا الشكل المهين يقتلها، مهما بكت لن تأخذني بها أي شفقه، كم فتاة أذلت وقهرت، وكم عرض بإذنها هُتك، هل رَأَّفت بحال أي من ضحاياها، هل رق قلبها المتحجر لدموع إحداهن، ثم دق هاتفها!

سأرد على الهاتف!

ماذا قلت! ابق مكانك

سأرد على الهاتف

ألا تنتهي أعمالك أبدًا! قمت وأحضرت الهاتف، وقد أخذتني الحماسة أكثر فحطمته تحت قدمي بغيظ، وهي تنظر غير مصدقة وصارخة.. أنت مجنون وحقير!

أخرسي وإلا أقسم بربي سأقطع لسانك واربط يديك وقدميك وأوسعك ضربًا، فهذا سيسعدني كثيرًا!

رق صوتها وأخذت تنتحب لتستجدي عطفي قائلة: اسمعني! لدى مال كثير، سأمنحك ما تشاء فقط أخرج من حياتي!

أنتِ إذن لا تحبين المغامرة ولا تقدرين التحدي!

أرجوك دعني أرحل!

عندما أقرر ذلك.. اجلسي وكوني عاقلة، أخبريني بأمر!

قالت من بين شفتيها المطبقتين: ماذا؟!

قلت أنني أعجبتك، ظننت أنك تقصدين أنه قد أصابكِ الإعجاب بي، يوم أتيتِ تحذرينني من شبح صفاء، لكن اعتقد الأمر أبعد من ذلك، فما القصة؟ صمتت فصرخت في وجهها انطقي! تنفست أدعي أنني اهدئ نفسي.. جاريني يا امرأة فأنا ضجر للغاية، مسحت وجهها الملطخ بالأصباغ وبدأت تتحدث...

كان زوجي يتحدث عنكَ مع شخص على الهاتف، وقال إن الموظف الجديد جاء من دون عائلته، وتابع مع محدثه... نعم إن ملفه لدى هنا، يبدو كفء لكن لن اطمئن حتى تأتي أسرته، وإلا سيتسبب في إثارة الفتن، ثم ضحك بشدة وتابع الأمر الذي لا ينقصنا أبدًا.

أجل! وهكذا لفت انتباهك لي كصيد ثمين فأتيت إليَّ تنصبين شباكك..

نعم أخذت الملف وشاهدت صورتك وقد علمت عن ماذا يتحدث زوجي

كنت أنظر لها شذرًا؛ فلو النظرة تحرق لكانت هي تلك النظرة، هنا أرسل عمر إشارته ليِّ فتنفست الصعداء، فقد ضقت ذرعًا بتلك المخلوقة، كم هي عفنة الروح وميتة القلب، وقد اكتفيت من ذلك كنت اندمجت في لعبة القط والفأر، ولا أرغب في التهور...

حسنًا تستطيعين الرحيل! أقسم لكِ لو كنت رجلًا لضربتك، أخذت هاتفها المحطم من على الأرض ورحلت مسرعةً ووجها يغطيه الدمع، فتذكرت مسلسل "دموع في عيون وقحة"..

فعلًا هي وقحة ولا تستحق أية شفقة.... ذهبت متحمسًا لأعرف ماذا فعل عمر ولتبدأ الإثارة الحقيقية، قابلت الجميع فلاحظت عدم وجود الفتاة... عمر أخبرني بكل ما حدث.

أنت أخبرني ماذا فعلت مع بثينة؟!

حطمت هاتفها، وأيضًا كرامتها.

جيد جدًا، هذا سيعطلهم بعض الوقت فعلينا الإسراع!

وصلنا وجهتنا، حمدت الله لأن مأمور القسم ليس موجودًا في تلك السهرة الحمراء، وقد كان ما يزال في القسم، ترى أي نوع من الرجال هو!

نعم! من أنتم وماذا تريدون؟!

تحدثت أنا بطبيعة الحال لأن البلاغ سيقدم باسمي، كمتضرر؛ أنا الموظف الجديد نقلت حديثًا إلى هنا وهؤلاء أصدقاء.

أصدقاء!

أجل وبقيتهم في الخارج، أريد أن أقدم بلاغ والأمر لا يحتمل أي مماطلة، نظر الرجل لنا جميعًا باستعلاء...

بخصوص ماذا؟!

أسرتي ستأتي بعد شهر ونصف، بطبيعة الحال كنت اتفقد المنطقة وأسأل عن كل شيء؛ فعلمت بأن هناك منزلًا مشبوهًا، أنا متضرر، ادعيت القهر والحزن وتابعت أقول: كيف أحضر زوجتي وأبنائي إلى هنا لدى ابنتان سيدي، ولذلك ها أنا أتقدم وأبلغ سيادتك بأنه والآن بالتحديد هناك حفلة ماجنة هناك!

كيف ذلك؟! هذا كلام عاري من الصحة!

أقول لسيادتك الآن لو داهمت المكان سترى كل شيء بنفسك!

هذا بلاغ كيدي وازعاج للسلطات، أرجوكم اذهبوا بهدوء بدلًا من أن آمر بالقبض عليكم جميعًا!

يصبح هكذا لو تحققت منه أولًا ووجدته كذبًا!

كان عمر المبادر بزمام الحديث، ففكرت ماذا كنت انتظر منه، كنت قد علمت أنه صديق للسيد رمضان...

سيدي أترفض التحقق من بلاغ المواطن محمد قاسم عبد الجليل؟!

ومَن أنت لتتحدث باسمه؟ هل أنت محامٍ عنه!

لست محاميًا لكن الأستاذ عبد الرحمن السيد محامٍ، كما أن معنا ممثلين عن السلطة الثالثة، وأنت الآن في بث مباشر لقناة العالم قرية صغيرة، هنا رفع أحدهم الكاميرا يشهرها في وجه المأمور؛ فأكمل عمر أرجو من سيادتك أن تتعاون، وتأخذ بلاغ أحد المواطنين المتضررين بعين الاعتبار.

أخذت أفكر العالم قرية صغيرة.. يا له من اسم مناسب! ثم تابع عمر بجدية شديدة فما رأي سيادتك! أتريدنا أن نذهب لغيرك! تأكد سنفعل! رأينا أن عمر أصاب من الرجل شيئًا بكلامه، إما الخوف على منصبه أو سمعته، أعتقد كلاهما، تابع عمر يقول سيدي إن لم تقم بواجبك اليوم؛ ففي الغد عندما ينتشر هذا المقطع في كل قناة، ستعزل من منصبك ويتم التحقيق معك، وتُتَهم بتعطيل القوانين والتخاذل في أداء واجباتك الوظيفية.

سقط الرجل من عليائه، وحار جوابًا، لكنه داهيةً؛ سيحاول أن يقفز من السفينة الغارقة قبل أن يهلك معها، فاستجمع أفكاره وحشد خياله وحيله؛ ثم قال:

أتعرف كم بلاغ يتقدم به المواطنون بهذه المنطقة، وتتحرك القوى لنكتشف بأنها بلاغات كيديةً سببها عداوات بين المواطنين، بسبب مشاجرة على أحد أعواد الذرة، أو بسبب فلاح كان يراقب زوجة الآخر

الأمر أكبر من ذلك، وإليك الدليل، تحقق بنفسك!

وضع عمر الجهاز النقال أمام المأمور، وكانت الحفلة في أوج استعارها والشخصيات جلية بوضوح، تتمايل الفتيات شبه عرايًا وسيادته يراقص فتاة شبه عارية، ويلمس أماكنها الحساسة بيديه بشكل فاضح وسافر ومخزي، والدخان الأزرق منتشر وكؤوس الخمر تدور بينهم؛ حتى أنا دهشت مما رأيت... وتندي جبيني!

أعتقد أنك مطالب أمام القانون والشعب بأن تقوم باللازم!

رفع الرجل سماعة الهاتف بيد مرتعشة وطلب من نائبه تجهيز القوة للمداهمة.

هكذا خرجت القوة ونحن خلفها، ملت أهمس في أذن عمر أمام الشعب والقانون.. وصلنا هناك! كنت أخشى أن نصل ونجد المكان فارغًا، فكان من الممكن تنبيههم، لكن المقطع الذي يدين الجميع بالأفعال المشبوهة، كان مباغتًا فشل تفكير الجميع، حتى أنا، كنت أشعر وكأنني في حلم، وبكل حال حتى لو رحلوا الفضيحة ستقع ما أن ينتشر ذلك المقطع الفاضح...

عنصر المفاجأة هام جدًا، دخلت القوة وثارت ثائرة الجميع، بدأت النساء بالصراخ أخرجوا الجميع، كان الأصدقاء يصورون حصريًا لقنواتهم وصحفهم، الوضع كان جنوني وصاخب جدًا، وقد كنا جميعنا واقفين وقد شاهدنا بأعيننا تهريب سيادته من الباب الخلفي، وصورنا سيارته ذات الزجاج الأسود الطامس للرؤية؛ وهي تعدو مسرعة، بينما تم القبض على الجميع...

نظرنا لبعضنا البعض واستولى علينا الضحك، هرب الفأر؛ فقال عمر:

هل رقم السيارة ونوعها واضح، جعله فؤاد يشاهدها بنفسه.

همهم عمر، خسارة في الغد ستصبح خردة في سوق المستعمل، آسف جميلتي!

سلم المأمور علينا قبل أن يرحل

سيد محمد ستأتي في الصباح؛ وسنكمل المحضر، شكرًا لكم جميعًا أنتم مثال لكل رجل شريف

قال ذلك ورحل، لم نستطيع أن ننتظر أن يبتعد الرجل، فبدأنا بنوبة ضحك هيستيري جديدة..

يا لها من ليلة! في الغد سأتقدم ببلاغ في حق بثينة، لكن أخبرني: كيف صورت تلك المقاطع!

ليس صعبًا! عندما لم أستطع الوصول للداخل أرسلنا نهال، أو نانا كما تحب أن يناديها الجميع للداخل ومعها زجاجة خمر هدية من بثينة للسيد العظيم، وقد راقت له تلك الجميلة مثلما هو متوقع؛ فدعاها إلى كأس ثم تم التصوير بكاميرا دقيقة جدًا في حلية على صدر نانا، لذلك وجب أن نضع عينًا على بثينة حتى لا يتصل بها أحد سائلًا عن نانا فيكشف أمرها..

أنت داهية! بالفعل هناك شخص طلبها؛ ولذلك حطمت الهاتف.

وكيف حطمت كبرياءها!

تعالى وسأقص عليك...

عدنا للبيت جميعًا ما عدا الفتاة، وعندما سألت عنها؛ فقال عمر أنها رحلت مع اثنين من رجالنا في سيارة خاصة، استرحت لذلك؛ فهذا أفضل..

محمد أريد منك خدمة وأرجو ألا تخجلني أمام الرجال!

ماذا؟! لا تقل ذلك أنت أخي وصديقي وأيًا كان ما تريد سأفعله!

الرجال يريدون الاحتفال بهذا السبق.

حقهم! لا أمانع فماذا يريدون!

يريدون الخمر!

دهشت وكدت أن أعيش في دور العفيف الشريف، وأثور قائلًا: خمر في بيتي! يا للهول! ولكن من أنا لأرفضهم كعصاة مذنبين أو حتى أعيب عليهم، أنا شخص وقع في إحدى الكبائر، لكن ربما أشفق على صديقي من مصير سيئ، وأود لو أنقذه من ذلك المصير، رغم أنني عاصٍ لكن بعد كل ما صار فكل شيء قد تغير، كوني عاصيًا مذنبًا لا يجعل مني حيوانًا أصم أبكم لا يأبه لأحد، ربما كنت هكذا قديما، أما الآن لن أسمح بمعصية أو أسهل لها، ليس وأنا موجود

كان عمر ينتظر ردي خجلًا فأشفقت عليه وسألته:

أتشرب الخمر! لم أكن لأظن ذلك أبدًا!

ليس مثل السابق، ألم أقل لك أنني لست ورعًا بما فيه الكفاية! حقًا أتمنى لو أقلع نهائيًا لكن أنا اليوم أفضل من السابق، أشرب في مناسبات متفرقة فقط..

تشرب في حضورهم! وأنا الذي كنت أتساءل من أين أحضرتم الخمر، الذي ذهبت به الفتاة كهدية لسيادة المسؤول! اسمعني جيدًا يا عمر إن هدفك مختلف عن أهدافهم فعلت ما فعلت؛ لأنك طيب القلب فلا تنس أصلك الطيب، وإنك راغب في إصلاح العالم رغم أنه على وشك أن ينهار، لكن ذلك لم يفت في عضدك، أما هم هدفهم السبق والشهرة والمال، تبًا لكل شيء يضطرنا أن نمد أيدينا في أيادي من يسحبنا للشر.

صديقي أعتذر إليك! أفعل ما تراه مناسبًا لك!

تعرف يا عمر أنني لن أرفض لك طلبًا؛ لكن حقًا أريد التوبة عن كل ما هو حرام، فعاهدني علي توبة أيضًا، ودعنا نؤازر بعضنا في ذلك، أتعلم أمرًا آخر بعد مغامرة اليوم، لن أقدر على العودة إلى وظيفتي المعتادة، فبعد كل تلك الإثارة؛ يبدو المكوث خلف مكتبي الخشبي الأنيق أمرًا مضجرًا للغاية، لذلك أوافق على العمل معك!

ابتهج عمر ومد يده وصافحني؛ وماذا عن هؤلاء!

كلكم ضيوف عندي فدعني أقدم لكم ضيافة عظيمة تليق بكم، وقل لهم أنك لم تستطع مفاتحتي بشأن الخمر لأنني رجل متشدد للغاية..

وضعت أمامهم كل ما لذ وطاب مرحبًا متهللًا، نظروا لبعضهم البعض وهم يروا مجموعة العصائر التي وضعتها و إلي جوارها بعض المكسرات، التي سبق وأحضرتها ليلي ضمن أشياء كثيرة فبادرت: هيا شباب لا تخجلوا البيت لكم، سأصلي العشاء فلم يتبقَ الكثير ويأذن لصلاة الفجر، أهناك من يرافقني! جاء عمر وواحد آخر، كان شابًا صغير بدا معجبًا بعمر وقد نبهت عمر بذلك، فقد يتمكن من استغلال ذلك في تقويمه وإبعاده عن طريقهم.

مضينا نتسامر حتى أدركنا النعاس فنام الجميع، ولكني لم أكد أن أنم إلا واستيقظت مجددًا

ووجدت عمر مستيقظًا... ألم تنم بعد!

لم أستطع!

أنا قد نمت قليلًا ولست أعلم.. أشعر بانقباض!

لا تقلق بعد قليل يأتي المحامي ونرحل جميعًا للقسم وينتهي كل شيء، تحدثت مع غادة قبل قليل طلبت منها أن تجمع أشيائها الهامة من ذكريات وصور، أتعرف ماذا قالت: لا ذكريات لي مهمة فقط بضع صور لأختي ولأبنائها..

صعب أن تعيش حياتك ولا تحمل في قلبك سوى أسوأ الذكريات!

الحمد الله أن كل ذلك سينتهي، سأقدم بلاغ في بثينة وأتخلص منها للأبد!

لو تود الأخذ برأيي.. لا تفعل!

نظرت إليه مندهشًا؛ فقال:

لا تعاديها أكثر من الممكن جدًا أن تبتعد عنك؛ لتأمن شرك وهي تعلم جيدًا ما تحتكم عليه من أدلة تدينها، لكن لو افقدتها الأمل وفضحتها، لن يكون لديها شيئًا تخسره، وقتها لن تضمن ردة فعلها..

قطعًا لا أقبل بذلك، يكفينا هروب المسؤول من المحاسبة على أفعاله، أما بثينة يجب أن تدفع حسابها كاملًا وسآمن شرها ما أن يتم وضعها خلف القضبان وهو ما تستحقه تمامًا.

حسنا أفعل ما تراه مناسبًا!

لن ينتهي الشر أعلم ذلك جيدًا، ولكن نتخفف منه قليلًا مادامت الفرصة سانحة، أعلم أن هدفك هو الضحية كما تقول، لكن بترك الشر مطلق السراح سيكون علينا إنقاذ المزيد من الضحايا، وربما فقدنا بعضهم بعجزنا عن مساعدتهم، وأنت أدرى بذلك مني، غام وجهه وقد مرت عليه سحابة حزن محملة بذكريات مؤلمة مرت عليه خلال عمله هذا.. فقال خجلًا:

معكَ حق! أنا فقط أردت... لا أعرف فيما فكرت!

هون على نفسك! أتفهم وضعك أنت فقدت الأمل في إصلاح البشر!

فعلا فقد مررت بالكثير، أتعلم! من المفترض أن أجلس على مكتب أدرس حالات الضحايا من ملفات أتلقاها بالتعاون مع السلطات؛ لأقوم بعملي في رفع تلك الحالات للجهات المعنية، وأخذ الموافقة على دعم تلك الحالات وتوفير الأمان اللازم لها، لكن لأن هذا ما لم يحدث وأبدًا، تركت ذلك المكتب الفخم ورحت أبحث عن كل ضحية مكمم فمها، محبوسة تحت الأرض مخنوقة لا صوت لها، وأتحايل وأقوم بتعريض نفسي للمخاطر؛ لإخراج هؤلاء الضحايا بالحيلة، واعتدت ألا أهتم بسواهن، ولا ماذا أفعل في سبيل تحريرهن، وفعلًا فقدت البعض بعجزي عن المساعدة.

قلت أواسيه: صدقني الجلوس خلف المكاتب يؤلم الظهر.. نظر لي بدهشة فاستطردت أقول: حقًا لا أمازحك، حصلت منه على ابتسامة أنارت وجهه، ثم أخذت أقص عليه كيف أمضيت قرابة الساعة أعذب بثينة، وقد كان مبتهجًا يضحك، كم أشعر تجاهه بالمحبة كأنه أخي، الذي لم تنجبه أمي، لا أدري كيف كانت حياتي من دونه!

في حوالي الساعة التاسعة رحل أصدقاء عمر، وأتى المحامي ومعه اثنين من النساء، وهما مَن سترحل غادة بصحبتهما، جاءت غادة لكن كان يبدو عليها الخوف، تعمدت أن أجلس إلى جوارها، وكانت تحمل حقيبة يد صغيرة ورحلنا جميعا.

ماذا هنالك يا غادة! أراك منزعجة! هل حدث شيء ما ازعجك؟!

لا شيء

أخبريني ولا تخف شيئًا عني، نحن بصدد الانتهاء من كل ذلك، وإن كان هناك شيء أريد أن أعرفه الآن! هل واجهت صعوبة في الخروج من المنزل..

لا فهم نيام!

إذن ماذا؟!

لا شيء حقًا لكن كل ذلك يبدو غريب، وكأنني أحلم.. أحقًا سأتحرر من كل شيء كبلني وشل حركتي، هل سأنام يومًا دون خوف أو رعب يصيبني كلما اقترب شخص مني!

كلنا نشعر بالغرابة من الأمس، صدقيني كلنا حياته تغيرت، لكن للأفضل، وأنت أفضل من نساء وفتيات كثيرات، وقد أتيحت لكِ الفرصة للتحرر، تشجعي هذه خطوة عليكِ اتخاذها بوعي هناك غيرك ضاعت عليهن الفرصة؛ لأنهن يرتعبن من التغيير، ويمكثن طوال حياتهن في العذاب ويستسلمن لقدرهن الأسود مدى الحياة..

أشعر بالخوف سأذهب لمكان بعيد عن كل من أعرف، فماذا سأفعل؟!

أنتِ صغيرة ستتأقلمين على ذلك، كما أنكِ قوية وتلك الأزمة التي مرت بكِ جعلتك أشد صلابة مما تعتقدين، فدعي عنك الهواجس، سيكون كل شيء على ما يرام، وأنا موجود ومعك رقم هاتفي، وسأعود إلى القاهرة أيضًا، وقلت أشغلها: أخبريني أكنت ترغبين في دارسة التجارة حقًا!

أكيد ليست الخيار الأمثل لي، لكن الظروف والمجموع والتنسيق، أجبرني عليها، كان من الممكن أن أدخل أفضل الجامعات الخاصة لكن أنت تعلم!

ماذا كنت ترغبين في دراسته حقًا!

كنت أدعو الله دائمًا أن أصبح طبيبة.

لمَ لا! نظرت لي بشك، من الممكن جدًا أن تدرسين ذلك بالخارج، نظرت لعمر كي يؤيد كلامي، فأماء برأسه إيجابًا؛ وقال: المنظمة تدفع تكاليف دراستك في أي مكان بالعالم.

نظرت بدهشة لكلينا وبدأت في البكاء، فاحتضنتها إحدى المرأتين وبدأت تهدهدها.

علمت لما جئن، للمؤازرة والدعم النفسي، بدأت الأخرى تتحدث معها بلطف كأنها تتعامل وطفل رقيق حساس... حسنًا تستحق بعض الدلال واللطف بعد ما عانته طيلة سنوات عمرها، ومما علمته فيما بعد إن إحداهن، طبيبة نفسية والأخرى مرافقة ستظل مع غادة لفترة من الوقت، حتى تتأقلم ووضعها الجديد.

وصلنا! حسنًا ها نحن! أخذت عمر وذهبنا لأحد المعاونين، وأخذ المحامي غادة إلى أحد المسؤولين لتقديم البلاغ وعمل المحضر، واستدعاء ذلك النذل ليواجه ابنته بما تدعي عليه، موقف صعب أتمنى أن يمر على خير، وأشفق على غادة، أتمنى أن تصمد وتواجه والدها بقوة ولا تتخاذل..

المكان كان يعج بالصحفيين والمراسلين للقنوات والصحف، الوضع هستيري، بكل ما تحمل الكلمة من معنً، لم نسأل لعلمنا بأن كل هذا من أجل واقعة الأمس، لكن ما سمعت من أحد العساكر جمد الدماء في عروقي، كان يقول لأحدهم: أنا رأيتها، المرأة مذبوحة ومقطعة اليدين..

ومَن فعل ذلك؟.. زوجها!!

لا ليس هو! هو من قدم بلاغًا بعدم عودتها من الأمس.

ألا تترك تلك البلاغات ليومين

ليس لهؤلاء فهذا الرجل صديق المأمور

ثم فجأة نظر لي قائلًا: لا أعرف ماذا حدث كان القسم هادئًا، ثم فجأة؛ من الأمس تكالبت علينا المصائب تنهال من كل صوب..

الرجل يعتبرني نحس على بلدتهم الفاضلة، التي تأوي في أنحائها كل أنواع وألوان الرذيلة والشر، هذا لا يهم، لكن من هي التي يتحدث عنها، فسألته عمن يتحدث، نظر لي باستعلاء وأجاب..

السيدة بثينة! يبدو أنها كانت عائدة من مكان ما ليلًا، خرج عليها لص من الزراعات؛ ذبحها ليسرق أساورها الذهبية، وعندما لم يفلح في خلع تلك الأساور قطع يديها.

فجأة أظلمت الدنيا حتى كدت أسقط مغشيًا عليَّ، وبالفعل كانت الأرض تميد بي، أسندني عمر وحملني على الذهاب، مشيت رغم أني شعرت وكأنني كائن رخو لا عظام له..

وفي دورة المياه.. غسلت وجهي وأفرغت ما في معدتي..

أسمعت ما حدث، ذبحوها!

هذا وارد، فلولاها لما تم فضحهم، قد تمادت كثيرًا!

كنت أظن أن معي دليل يجعلها تتعفن في السجن، وفجأة أصبح دليل إدانتي لو أظهرته، لأصبح دافعًا قويًا يضعني ضمن دائرة المشكوك فيهم...

ترى من قتلها! كم تتغير الأدوار سريعًا!

ربما نفس القاتل الذي حاول قتلك، وهو حتمًا له علاقة بالرجل الكبير.

ماذا سنفعل؟!

لا شيء! تماسك ودعنا ننتهي من كل ذلك ونرحل، هيا اهدأ!

بالفعل انتهيت من الإدلاء بإفادتي عن البلاغ المقدم باسمي من الأمس العجيب، وكانت غادة أيضًا قد انتهت مشكلتها، وقد تم القبض على والدها وزوجته، وتم حبسهما أربعة أيام على ذمة التحقيق، ومما علمت إن النيابة ستحقق معه، وتجدد له الحبس في الميعاد، وستصل القضية للمحكمة، وهناك من الممكن التلاعب بالقانون ورفض الأدلة وعدم الأخذ بها، حقًا عدالة عمياء ولا تميز بين الظالم والمظلوم، المهم أن لدينا الكثير من الوقت لنبعد غادة ونؤمنها، والمنظمة الحقوقية تعترف بتلك الأفلام كدليل قاطع لأنها ليست جهة قضائية، لكنها مؤسسة خيرية إنسانية في المقام الأول عدنا للبيت، كنت واجمًا بينما لم تكف غادة عن الحديث، متخلية عن تحفظها وخوفها بعد تلك المواجهة الهامة، كانت كطفل أدخلوه دكان للحلوى، لم التقط سوى القليل مما قالت عن كيفية مواجهتها لوالدها بقوة وشجاعة، وكيف عامل وكيل النيابة الرجل باحتقار مذلًا إياه، وعندما واجهه بجرائمه فأنكر ادعاءات ابنته لكن عندما شاهد المقاطع، كاد يذوب كالملح من شدة الغضب، وأهم ما في الأمر أنه استدار وضرب زوجته ضربة أوقعتها أرضًا وطلقها، لأنها فضحته بما فعلت، كانت غادة جزلة تضحك وتثرثر وأنا صامت!

سألتني في النهاية عندما لاحظت وجومي ألست سعيدًا؟! نظر عمر لي ففهمت ما يعني، لم أكن ابدًا لأعكر صفو فرحتها بالصراع الذي يدور في داخل نفسي، بعد مقتل بثينة فهذا لا يعنيها، قلت أجاريها: أنا سعيد جدًا لأجلك، لكن في الوقت نفسه سأفتقدك، كنت بالفعل أشعر بذلك...

ألم تقل أنك ستأتي للقاهرة؟!

نعم! ولكن لن أستطيع رؤيتك على الدوام؛ فهناك برنامج تأهيل ينتظرك، كما أنك ستعودين إلى هنا لأجل إنهاء دراستك وتسافرين بعدها للخارج، لكني أتقبل ذلك عندي أبناء وأعلم جيدًا ما إن تكتمل أجنحتهم سيطيرون بعيدًا عن الحصن؛ ليحققوا ما تصبو إليه نفوسهم، لكن لا استطيع منع نفسي من الحزن؛ لن ابتعد سأظل اتصل بكِ! فأنت الشخص الوحيد الذي ساندني ووقف إلى جواري، لن أنسى ذلك ما حييت!

وصلنا للبيت وأخذ المحامي الجميع ليرحل، أراد عمر أن يبقى معي، رفضت.

لماذا لا أبقي معك ونعود سويًا!

بل أبق مع غادة سيكون أفضل إن تواجدت معها؛ لتطمئن بنفسك إلى ما ستؤول إليه أحوالها لن اطمئن إلا بوجود أحدنا معها وهي كذلك..

سأنتهي من كل شيء وأعود في غضون يومين لا أكثر، صدقًا أنا بحاجة للمكوث وحدي لبضعة أيام.

نزلت غادة من السيارة، وفجأة احتضنتني وتشبثت بي قليلًا، فبادلتها ذلك قائلًا وقد كدت أبكي حقًا لأني سأفتقدها حقاً..

تمالكت نفسي وقلت اطمئنها، كل شيء سيكون على ما يرام وعمر لن يتركك إلا بعد أن يطمئن لأحوالك واستقرارك، انتبهي لنفسك، ستكونين بخير!

أجل، أنا بخير، والفضل لك

أوصلتها لباب السيارة مودعًا إياها والجميع، قام عمر بتحيتي....

انتبه لنفسك يا صديقي! فمازال الشر طليقًا.

لا تقلق!

حسنًا إلى لقاء قريب!

رحل الجميع وبقيت وحدي، يا له من يوم لا أعرف حتى كيف مر علي!

جلست انتظر، الليلة سأتجرد من كل شكوكي، وأنهى كل شيء ثم أعود بلا دين لحياة جديدة، أحياها بشرف ونزاهة، كان من الممكن أن أرحل، لكن لا أريد أن أحزم الشر وأنا عائد لأسرتي وأعيش طريد خوفي ووساوسي، سأواجه مخاوفي وأحاسب على أخطائي، وإن عدت لبيتي وزوجتي أكون نظيفًا خاليًا من أي شائبة، أمنت كل أبواب المنزل ونوافذه تاركًا ثغرة واحدة، جلست انتظر عندها، لكن طال انتظاري حتى ظننت أن هواجسي بلا داعٍ أو معنً، لكن بالفعل كنت محقًا مرة أخرى فقد أتى ووضع قدميه في الفخ وما أن مد رقبته حتى أطبقت عليه بكلتا يدي، وقد وكان ملثمًا مثلما رأيته أول مرة.

ضربت رأسه بالحائط فسقط مغشيًا عليه و يا للدهشة عندما رفعت لثامه فقد كان الإمعة محسن أفندي، أوثقته في كرسي في وسط المطبخ، وكممت فمه، وبتفتيشه وجدت معه سلاحًا ناريًا ، يبدو إن هذه المرة يجب أن يتأكد من قتلي، معي الرقم الخاص لسيادة المأمور، فأنا رجل شريف حسبما قال؛ وهو سيكون متواجدًا من أجلي دائمًا، ومسرورًا أن يقدم لي أي خدمة، فطلبته وأخبرته بما حدث وهو في الطريق، طلبت عمر شغلت البث المباشر، سيد المواقف جمعاء، وانتظرت حتى أفاق من غفوته، ظل يزوم.

حمدًا لله على سلامتك! أليس هناك حد لإجرامك! لا تخبرني بقصة عبد المأمور تلك، لقد تماديت كثيرًا هذه المرة، ولم تعد إجابة مقنعة، أتريد

الحديث! حسنًا لكن ليس من أعذار، فقط أريد حقائق، رفعت كمامة فمه ليستطيع الحديث، قلت أواجهه: من حرضك على قتلى أهي بثينة؟!

لا ليست هي!

اندهشت كنت أثق تمامًا بأنها هي، وهي لم تنكر، كانت فرصة لتريني بأسها ولو بالباطل، من إذن!

لا أستطيع القول!

ليس بأمرك، أكنت تدعي الخوف من المرأة المحترقة يوم جئت إلى هنا، في الواقع أنت مجرم جدًا ليرهبك شبح امرأة محترقة، تلفت حوله قائلًا: أما زالت تأتي!

ألكَ يد في قتلها؛ فهي تأتي وتصرخ قائلة: احرقني وسأنتقم منه، قلت ذلك استغل خوفه منها، ربما إستخلصت منه الحقائق .

لم أفعل! لم أفعل!

أنا سأفعل! مرة أخرى وضعت الكمامة على فمه سأجعلك تتمنى أن تتحدث، أخذت أجر الكرسي حتى وصلت للشرفة، سأضعك في مكانك المناسب؛ كي تكفر عن كل أخطائك، أو تخبرني بكل شيء... صمت، فأكملت طريقي، فأخذ يزوم مرة أخرى.

لن يسمع صوتك أحد غيرها، فأصرخ قدر ما شئت، فهي الوحيدة التي ستتلذذ بعذابك، أخذ يزوم أكثر، الرجل لا يمثل، هو خائف فعلًا ومرتعب، مرة أخيرة هل ستتحدث؟؟ رفعت كمامته مرة أخرى.

حسنًا سأخبرك بكل شيء!

أولًا من حرض على قتلي؟!

السيد محمود البدري.

لم أندهش فالسيد العظيم بات معلومًا لنا وقد شاهدناه جميعًا، وذلك موثق لكن أردت اعتراف من محسن يزيد إلى جرائمه جريمة أخرى، ليتعفن في محبسه، هذا إن استطعنا حبسه فتابعت... ولمَ؟

لم أقصد القتل كان من المفترض أن تخاف وترحل.

ولمَ؟

لنا فترة نراقب تصرفات بثينة؛ لأنها مؤخرًا أصبحت تثير الريبة كثيرًا، وتهمل وتعرض بذلك زبائنها للخطر، فأردنا رحيلك لتعود للصواب، ولا تعرض عملنا للخطر

يا للقذارة، أكمل...

عندما يئسنا من ذلك تقرر التخلص منها، فكانت الخطة قتلها وتوريطك بذلك، خاصةً هاتفها المحطم كان به المقاطع التي تهددك فيها بوضوح، والتي كانت ستصبح دافعك لقتلها، ولكن سيادته أعدل عن ذلك وأراد موتك انتقامًا منك بعدما قدمت فيه البلاغ، لذلك دبرنا قتلها بشكل آخر، فكان دافع السرقة هو الخيار الأنسب..

لا تنضب الحيل لديكم أبدًا، أتسجل ذلك يا عمر!

نعم! ذلك بديع حقًا!

وماذا عن صفاء؟ مَن قتلها؟ ولما صمت قليلًا.. لا تصمت الآن! لقد حاولت قتلى مرتين، فماذا بعد بدأ يبكي..

سيقتلونني!

ستموت بكل حال من الأحوال، فلما لا تكفر عن ذنوبك وتشي بهم، فهم القتلة الحقيقيون وأنت فقط عبد المأمور فلا تنس ذلك

حسنًا سأخبرك بكل شيء!

أخذ يزدرد ريقه بصعوبة، أحضرت الماء وسقيته فأنا طيب القلب حقًا...

ثم حكي كلامًا عجيبًا.. المرأة المحترقة ليست صفاء.. صفاء على قيد الحياة!

كنت مذهولًا مما قال، كل ما واجهته في رحلتي هذه أمر وهذا أمر آخر، نظرت للكاميرا أتسمع ذلك

نعم!!

من المرأة المحترقة إذن إن لم تكن صفاء، ما كل هذا اللغط والتخريف، انطق بالحق يا هذا!

هذا هو الحق، صفاء كانت مختلفة، أجمل امرأة فيهن وكان جليًا إنها مكرهة على ذلك، أرادها سيادته لنفسه فقط.

ولماذا لم يأخذها فحسب!

لم يستطع.. فقد كان بينه وبين بثينة اتفاق أن يحرص على مصالحها؛ كي تحرص على مصالحه وألا يتدخل كل منهما في عمل الآخر، فأرادها لنفسه بشدة، وقد كان يعلم كل ما عانته طوال حياتها، وقد كنت أعلم أنها هددت أكثر من مرة، بأنها ستنتحر لتتخلص من كل شيء هي وأختها، لكن سيادته لم يكن ليسمح بذلك إذ إنه على ما يبدو قد عشقها وكان يأتي لأجلها كثيرًا.

عشقها!! تذكرت كلامًا قد قالته بثينة، الأكابر كانوا يتهافتون عليها..

ثم وضعنا خطة لتهريبها، لكننا أردنا ضمان أن ينسى الجميع قصتها ولا يبحث أحد عنها، كما لو كانت ميته

لذلك أحضرت تلك المرأة المشردة من قرية مجاورة وأضرمت فيها النيران حية.

لست وحشًا إلى هذه الدرجة، قد قتلتها أولا بجرعة مخدر عالية، ثم أشعلت فيها النيران.

يا لطيبة قلبك! أكنت متأكدًا أنها ماتت بجرعة المخدر، ربما لم تكن ميتة مثلما ظننت..

أخذ يبكي قائلًا:

ظننت أنها ميتة! لم أدرِ أنها مازالت حية، ورغم ذلك ما زلت ترتكب الشرور فقمت بقتل بثينة.

بثينة حقيرة تستحق القتل كانت وتزدريني وتحتقرني..

أتجد ازدرائها لك دافعًا قويًا للقتل! لقد قطعت يديها، هذا فعل ينم عن وحشية وبغض!

كنت سعيدًا عندما جاءتني الأوامر بقتلها ولست نادم على ذلك، لقد فرقت بيني وبين صفاء.

صفاء! أكنت على علاقة بها؟!

نعم!.. كنت أحبها وكنت أعلم بكل شيء عنها، حتى صوروها وأجبروها على الفسق، كنت سأهرب معها وأبعدها عن كل من آذوها، لكن أخذها السيد مني بسبب بثينة وزوجة أبيها، حب عمري ضاع مني، فلم يعد شيء يفرق معي، أصبحت من وقتها أقوم بالأعمال القذرة منتظرًا دور بثينة لأنتقم منها وبدأت بالمرأة المشردة، حتى أخفي آثار صفاء.. ويصدق الجميع بموتها ثم بثينة.

وكنت ستختم بي سجلك الإجرامي!

أجل! لكني حقًا لا اكرهك، كم حسدتك لأنك وقفت بوجهها، وأنقذت نفسك من كل أبواب الشر التي تفتحها، مخرجة أسوأ ما في نفسك، ملتهمة روحك فتنغمس في الآثام، حتى تغرق في لجة لا خلاص لك منها، فذلك ما حدث لي، قتلك كان أمر لا أكثر، بلا ضغينة.

بلا ضغينة! وأين صفاء؟!

أتظن أنني أعلم عنها أي شيء؟! هي ميتة لي، كما للجميع، هكذا تسير الأمور! لا أعلم ولا أسأل!

أنت حقًا محترف، هكذا تكشفت كل الحقائق!ما عدا دهشتي من موقف صفاء، كيف تترك أختها وترحل هكذا

لقد أتاحت صفاء الفرصة لغادة ووفرت لها الحماية حتى أشتد عودها وأصبحت قديرة على حماية نفسها، الأمر الذي لم تحصل عليه هي نفسها، فلا تلومها.

جاءت القوة، فكوا وثاق محسن وألقوا القبض عليه، في الصباح قدمت بلاغ في سيادة المحترم، وطلبت أخذ التعهدات الكافية لحمايتي، وتقدمت لطلب إجازة مفتوحة بدون راتب، وحصلت عليها سريعًا، ودونما عراقيل مع

مباركة من كل المسؤولين، تذكروا فأنا مواطن شريف، وجمعت أغراضي كلها، وتركت اللاشيء خلفي وركبت ذات القطار عائدًا، بأفكار جديدة ومنظور جديد لكل شيء، كان لي صديق أصبح أخ وهناك أخت باعت أختها وتركتها وحيدة مع ذئب طليق، مستسلمة بعدما ظلت تحميها لوقت طويل، وأيضًا نبذت أبنائها مثلما نبذتها أمها، آثرت نفسها ونجت بروحها مستغلة أول فرصة سهلة تأتيها للنجاة، أثق أننا لن نعرف لها طريق، لذلك من الأفضل أن تظل ميتة في نظر أختها، التي تظل تدعو لها بالرحمة، جراء ما كانت تقوم به من تضحية وحماية.

فكم تتغير القلوب، العالم مليء بالشر، أكثر بكثير من زاني أو شاربًا للخمر، لكن أفعال سيادة المسئول تأتي كخبر في وسائل الإعلام، ولا تأخذ مع الناس أكثر من شهر لتلقي بعدها إلى غياهب النسيان، أما الجار الزاني وهذا الآبق الشارب للخمر مهما تاب؛ تظل تلاحقه الألسن والأعين من أهل وجيرة، كلما رأوه أو تحدثوا عنه، هذا فلان الزاني وهذا فلان شارب الخمر، لذلك أمرنا الله بستر أنفسنا مادام هو سترنا، فالناس قاسية قلوبهم لا تعرف الغفران ولا ترحم، ينهشون بعضهم البعض بلا شفقة، والدنيا لا تقدم التعزية لأحد، لها شأن وضيع، أهون من جناح بعوضة.

ولقد قابلت في رحلتي القصيرة تلك أشخاص كثر، لكن أهم من قابلتهم هي ذاتي، وقد رأيتها بكل ما تحمل من خير وشر... نعم، أنا البر والفاجر، الطيب والقاسي، العاصي والطائع، بداخلي أحمل كل النوازع، هذا التنوع اسمه الخيارات المتاحة، بإرادة حرة نختار، إلى أي جانب سننحاز، وأنا أخترت وأعلم وجهتي جيدًا، عائدًا لربي، عائدًا لأسرتي..

وسأستلم مهام عملي الجديد، حاملًا معي ذكرى من هذا المكان العجيب وتلك الرحلة الأعجب، هو هذا السيف الخشبي الذي كان يزين أحد الجدران، لا أعتقد أن أحدًا سيفتقده. سأحارب الشر...